



دورية علمية محكمة

دراسات عربية وإسلامية

دراسات عربية وإسلامية العدد الحادي عشر (١١) يوليو ٢٠١٤ م

القيم الأخلاقية للكرم في العصر الجاهلي

الأستاذة

سعدية حسين البرغثي

عضو هيئة التدريس

كلية التربية - جامعة بنگازي

المقدمة

من الصفات الإيجابية التي وجدت في الجاهلية وأقرها الإسلام وحث عليها ، صفة الكرم والإنفاق ، فقد حفل كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ بالدعوة إلى هذه الفضيلة ، وعدّها أساس تضامن المجتمع ، وتماسك أفراده ، وأود أن أقف وقفة مع الكرم في العصر الجاهلي من خلال شعره ، فقد عرف الجاهلي فضيلة الكرم ، وتعلق به وحرص عليه فكان يبرز المعاني الإنسانية بتقديم ما يحفظ على الإنسان حياته ، أو يسد رمقه أو يروي غلته ، ولذلك عظم العربي الكرم وإطعام الطعام فكان في مقامة الفضائل التي يحب أن يتحلى بها .

فقد كانت البيئة العربية صحراء قاحلة ، وكان سكانها من البدو في ترحال دائم فراراً من الجذب وبحثاً عن موارد المياه والكأ ، تلك البيئة جعلت العربي يدرك قيمة الكرم وقرى الضيف وإعانة المحتاج ، ونصرة المظلوم ، وغيرها من المعاني الإنسانية النبيلة ، وهذا ما جعلني أتناول هذا الموضوع ، إن حبي للعصر واهتمامي به نابع من عمقه وتراثه ، ورغبتني في إبراز القيم النبيلة التي اتسم بها ذلك العصر ، والكشف عن جانب مهم من جوانب المجتمع المضيئة التي وجدت فيها ضالتي بعد أن شمرت عن ساعد الجد ، ورحلت مع الشعر الجاهلي متوخية اعتماد دواوين الشعراء في سبيل الوصول إلى الغاية المرجوة ، بالدقة المطلوبة وأبرزت من خلال أشعارهم قيمة الكرم والمعاني الإنسانية التي تأصلت في نفوسهم .

فالكرم من القيم الأخلاقية التي لها وقعها الكبير في النفوس وهو من الأخلاق العريقة التي عرفت منذ الأزل ، كما كان من أبرز صفات المجتمع العربي الجاهلي ، فقد حرص العرب عليه وعظموه ، ووصفوا بالكرم عظماء القوم ، وإن الكرم في مقامة الفضائل التي يحب العربي أن يتحلى بها .

" فمفهوم الكرم مثلاً أصيل عند العربي ، قديم قدم المواقف الاجتماعية التي تنزع إلى تشريف العنصر الإنساني حتى عُرف بكثرة سخائه " (١) ، ووفرة عطائه وقراه لضييفه

١ - الأمالي : أبو علي القالي ، تحقيق محمد عبد الجواد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ج ١ ، ص ١١٧ .

كدليل على عاطفية علاقاته الاجتماعية والقلبية وسعيًا إلى ربط أواصر المحبة والألفة ونشرها بين الناس ، فمن رحم المغانة في تلك الفيافي الواسعة ولدت هذه القيمة الإنسانية ، وهذا الخلق النبيل ليكون مظهرًا من مظاهر التعاون على ظروف حياتهم القاسية .
فقد انطلقت نحو أجواء الشعراء مسافرة عبر صحرائهم المترامية الأطراف على امتداد الأفق الرحيب ، معهم في حلهم وترحالهم مشاركة إياهم آمالهم وآلامهم .

وحينما أقرأ كلماتهم فأكاد أسمعها بالرغم من شقة الزمن التي تفصلني عنهم من حقب وأحداث وأمكنة وأكاد أحس أنني أشهد سخاءهم وكرمهم حتى في أخرج الأوقات حين ينقطع المطر وتجذب الأرض وأسمع شعرهم الذي يمجّد هذه القيم الإنسانية والاجتماعية التي أقرها مجتمعهم في ضوء حياتهم القاسية ، وفي صحرائهم الواسعة ، فكانت الثمرة هذا البحث .

وقد تطرّق إلى هذا الموضوع عدد من الباحثين من أهمهم : عمر الدسوقي في كتابه : القوة عند العرب ، والقيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي : د. يونس إبراهيم . .

والبحث يحتوي على ثلاثة مباحث سُبقت بمقدمة وتمهيد ، وذيلت بخاتمة .
تناول المبحث الأول مفهوم القيمة لغة واصطلاحاً ، ومفهوم الكرم لغة واصطلاحاً ، اهتمام العرب بالكرم ، والفخر بصفة الكرم ، ومدح الكرماء .

وكان المبحث الثاني عن الغاية من الكرم : مظاهر الكرم ، أفضل ما يقدم للضيف ، السخاء على الأرامل واليتامى والبائسين ، ودعوة الأضياف بشئى الوسائل .
وتطرّق المبحث الثالث إلى حوافز الكرم .

وقد اعتمد البحث على عدد من المصادر من أهمها المفضليات للضبى ، ودواوين الشعراء من أهمها ديوان حاتم الطائي .

وسار البحث على المنهج الوصفي التحليلي في معالجة النصوص الشعرية .

الله نسأل التوفيق والنجاح .

التمهيد :

لقد مثلت القيم في حياة الإنسان ومازالت حفظ التوازنات الحياتية ، وتلك غاية سامية لا يدرك كنهها إلا الله ، ولولا تلك القيم التي تتأصل في النفس الإنسانية ، وتجعل لحياته غاية سامية ينشد تحقيقها في ظل نواميس معينة سواء أكانت ناتجة عن عقله أم متأثرة بتعاليم دينه ، لما استطاعت الإنسانية أن تبلغ ما بلغته حتى يومنا هذا .

فقد تخللت حياته قيم ، منها ما يمكن وسمها بالخير ، ومنها ما نسميه بالشريرة ، وكيفما بدا لنا هذا الإنسان متناقضاً - في تعامله - مع تلك القيم أحياناً ، فهو ذو نزعة دائمة - تقريباً - إلى تغليب القيم الخيرة على الشريرة لأن طبيعته مجبولة على الخير .

فقد سادت في العصر الجاهلي قيم اجتماعية وأخلاقية اتفق عليها المجتمع للمحافظة على وجوده ، فالكرم قيمة أخلاقية سامية مجدها الجاهلي إلى حد المبالغة ، وراحت القبائل على ألسنة شعرائها تتباهى به ، وتتنافس في إظهاره ممثلاً لصفة من صفاتها المتأصلة فيها ، فقد مجّد العربي هذا الخلق الكريم تمجيداً يفوق كل شيء ، وكان واقع حياة العرب الاجتماعية دافعاً أساسياً يجعل من هذا الخلق حاجة من حاجات الناس وضرورة اجتماعية ، لذلك كان أول ما يذكر من الفضائل في باب المديح أو باب الفخر " (١) .

وكان هذا الخلق يمثل قيمة إنسانية سامية ، فكان الجاهلي يضع صفة الكرم والسخاء موضع الصدارة والقداسة في حياته ، فقد صور الشعر الجاهلي مواقف إنسانية راقية ، تتم عن إحساس حضاري سابق لزمانه ، فعلى ما في هذا الشعر من افتخار ومبالغة نفع - في أحيان كثيرة - على شعر يطفح بمواقف إنسانية نبيلة ،

١ - جدلية القيم في الشعر الجاهلي رؤية نقدية معاصرة ، د. بوجمعة بويعر ، ص ٣٠ .

ويصور مآثر اجتماعية قد تتدر في زماننا هذا ، فهذا الشاعر مالك بن جريم الهذاني يفخر بأبائه وبشهامته التي هي شهامة كل بدوي حر أصيل ، وبذلك نقف عند صورة اجتماعية تمثل مثلاً أعلى وقيمة إنسانية سامية (١) :

إِنِّي لَأَسْتَحْيِي مِنَ الْمَشْيِ أَبْتَغِي إِلَى غَيْرِ ذِي الْمَجْدِ الْمُؤْتَلِّ مَطْمَعًا
وَأَكْرِمُ نَفْسِي عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ حِفَافًا وَأَنْهَى شَحْهَا أَنْ تَطْلُعَا
وَأَخْذُ لِلْمَوْلَى إِذَا ضَمِيمٌ حَقُّهُ مِنَ الْأَعْيِطِ الْآبِي إِذَا مَا تَمْنَعَا
فَإِنْ يَكُ شَابَ الرَّأْسُ مِنِّي فَإِنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفْسِي مَنَاقِبَ أَرْبَعَا
فَوَاحِدَةٌ إِلَّا أَبَيْتُ بَغْرَةً إِذَا مَا سَوَّامُ الْحَيِّ حَوْلِي تَصَوَّعَا (٢)
وَتَانِيَةٌ إِلَّا أَصَمَّتْ كَلْبًا إِذَا نَزَلَ الْأَضْيَافُ حِرْصًا لِنُودَعَا (٣)
وَتَالِثَةٌ إِلَّا تَقْدَعُ جَارَتِي إِذَا كَانَ جَارُ الْقَوْمِ فِيهِمْ مُقْدَعَا (٤)
وَرَابِعَةٌ إِلَّا أَخْجَلُ قَدْرَنَا عَلَى لَحْمِهَا حِينَ الشَّتَاءِ لِنَشْبَعَا (٥)

فالشاعر هنا يربأ بنفسه عن الوقوع في مثالب لا يحبها ، ولا يراها جديرة به ، منها أن لا يتردد عن تقديم المساعدة لغيره إذا دعت الحاجة لذلك ، وأنه يرحب بالضيوف ، ويكرم حضورهم ، فيقدم القرى ، وتلك عادة جاهلية أصيلة ، وفضلاً عن ذلك فهو لا يتوانى في دفع الأذى عن جاريته ، ولا يسمح بأن ترقى بالفاحشة ، وسوء القول من لدن جارها ، ثم إنه لا يستتر القدر ، بل يهبه للجميع دون

١ - الأصمعيات ، الأصمعي ، ص ٥٨ .

٢ - الغرة : الغفلة . السوام : الإبل السائمة . تصوع : تفرق .

٣ - لنودع : لنترك ، يريد أنه لا يمتنع كلبه النباح خوف الضيف .

٤ - تقذع : من القذع ، وهو الرمي بالفحش وسوء القول .

٥ - لا أحجل : أي لا أسترها وأجعلها في حجلة ، وهي بيت للعروس يزين بالثياب والأسرة والستور ، يريد أنه يظهرها ليطعمها الضيفان .

الاستئثار به وحده ، وفي ذلك دعوة إلى نكران الذات ونبذ الأنانية ورمز لسخاء الجاهلي وعطائه غير المحدود .

فالشعر الجاهلي " لم يخل من تصوير أخلاق القوم ومثلهم العليا ، فهو يزخر بمثل تلك القيم النبيلة ، كما أنه سجل حافل بالقيم التي تمثل ناموساً طبيعياً يتحتم احترامه وتقديسه ، وإذا كان هذا الشعر تصويراً للحياة في مظاهرها الشاملة في مختلف جوانبها ، فهو أيضاً تصوير ذاتي ينطلق من الذات ليعبر عن الآخر ، ومن ثم يبدو فردياً لينتهي إلى إيصال الرسالة للجماعي " (١) .

يبدو أن الشاعر الجاهلي جعل من التغني بهذه القيم لازمة من لوازم قريحته ، فمجّدها وتباهى بها ، وجعل شعره يصب في معانيها ، وترك لنا موروثاً شعرياً خالداً .

كما يبدو أن مفهوم الكرم أصيل عند العربي ، قديم قدم المواقف الاجتماعية التي تنزع إلى تشريف العنصر الإنساني حتى عرف بكثرة سخائه ووفرة عطائه وقراه لضيفه دليلاً على حسن علاقاته الاجتماعية والقبلية ، وسعيّاً إلى ربط أو أواصر المحبة والألفة ونشرها بين القبائل العربية .

وهكذا تحتم عليه أن يقدم يد العون لكل طارق أو عابر سبيل يقصده ليلاً أو نهاراً شتاءً أو صيفاً أو ربيعاً أو خريفاً .

١ - القيم الخلقية في الخطابة العربية ، د. سعيد حسين منصور ، ص ١٦ .

المبحث الأول : مفهوم القيم

تعريف القيم لغة واصطلاحاً :

أولاً : تعريف القيم لغة : يقول ابن منظور : القيم " جمع قيمة ، والقيمة : ثمن الشيء ، يقال كم قيمت ناقتك ، أي كم بلغت " (١) ، وفي المعجم الوسيط : القيم تعني " قيمة الشيء وقدره ، وقيمة المتاع أي ثمنه ، وقوم الشيء أي أصلحه ، وقيم الشيء أي أظهر ما فيه من إيجابيات وسلبات " (٢) .

وقال الراغب : إن معنى القيم لغة : " أي ثابتاً مقوماً لأمر معاشهم ومعادهم " (٣) ، وفي مختار الصحاح ، القيمة : " واحد القيم وقوم الشيء تقويماً فهو قويم مستقيم ، وقيمة الشيء أي قدره " (٤) .

تعريف القيم اصطلاحاً : قيل إنها صفات أو مثل أو قواعد تقام عليها الحياة البشرية فتكون بها حياة إنسانية وتعاير بها النظم والأفعال ، لتعرف قيمتها الإنسانية من خلال ما تمثلته منها " (٥) .

وهي مجموعة المعايير والفضائل التي تعارف عليها الناس في العصر الجاهلي ، وأصبحت محل اعتقاد واعتزاز لدى الإنسان عن اقتناع ، والحقيقة أن الإنسان العربي كان فيه جوانب من اللين والمرونة وهي الجوانب الإنسانية العاطفية مثل حبه للإغاثة ، وإكرامه للضيوف ورفقه بالضعفاء والمروءة والعفة ، وغيرها من القيم الخلقية من خلال الشعر الجاهلي .

١ - يُنظر ، لسان العرب ، ابن منظور مادة (قوم) ج ١٢ / ٤٩٦ - ٥٠٦ ..

٢ - المعجم الوسيط ، مصر مجمع اللغة العربية ط ٤ ، ١٩٩٤ ، مادة (قوم) .

٣ - مفردات ألفاظ القرآن ، الأصفهاني ، الحسين بن محمد ، تحقيق صفوان داوودي ، دار القلم دمشق ط ١ ، ١٤١٢ هـ .

٤ - مختار الصحاح ، محمد بن بكر الرازي ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٨٨ م . مادة (قوم) .

٥ - يُنظر ، الفلسفة وقضايا العصر ، الزبيدي ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ .

تعريف الأخلاق لغة واصطلاحاً :

الأخلاق من الصور الباطنية وهذه الصور يظهر قبحها وجمالها عندما يصدر من الفرد أي فعل ، فبهذه الأفعال الصادرة يحكم على الفرد من خلالها بالخلق الحسن والخلق السيئ ، وعندما يقال : " فلان حسن الخلق والخلق " يراد به أنه حسن الظاهر والباطن .

الأخلاق لغة : جمع للخلق " والخلق والخلق : هو الدين والطبع والسجية ، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة ، وهي نفسه ، وأوصافها ومعانيها ، ولها أوصاف حسنة وقبيحة " (١) .

الأخلاق اصطلاحاً : يقول ماجد فخري إن الخلق " حال للنفس به يفعل الإنسان أفعالاً بلا روية ولا اختيار ، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً ، وفي بعض الناس لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد " (٢) ، من خلال تعريف الأخلاق لغة واصطلاحاً يتبين لنا أن الأخلاق تنقسم إلى قسمين أساسيين هما ، الأخلاق الحسنة : حال للنفس فطري أو مكتسب ، منه يصدر سلوك إنساني تقبله العقول الإنسانية السليمة ، وتستحسنه النفوس البشرية ، فيكون محموداً لأنه يرجع بالخير والنفع للفرد والجماعة ، وتسمى مكارم الأخلاق ، أو الأخلاق الحميدة ، وقيل إن الأخلاق الحسنة هي : الملكات التي تتبع منها الأعمال والسلوكيات الحسنة وتسمى (الفضائل) ، والأخلاق السيئة : هي حال للنفس فطري أو مكتسب ، منه يصدر سلوك إنساني ترفضه العقول الإنسانية السليمة وتستقبحه النفوس البشرية ، فيكون مذموماً لأنه يرجع بالشر والضرر على الفرد والجماعة ، وتسمى برذائل الأخلاق ، أو الأخلاق الذميمة ، وقيل إن الأخلاق

١ - لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (خلق) .

٢ - الفكر الأخلاقي العربي ، ماجد فخري ، ج ٢ ، ص ٨٩ ، نقل هذا التعريف من الفيلسوف يحيى بن عدي المتوفي سنة ٣٣٨ هـ .

السيئة هي مصدر الأعمال والسلوكيات السيئة وتسمى (الرذائل) .

القيم الأخلاقية في القرآن والسنة النبوية الشريفة :

الأخلاق هي مجموعة من الأفعال والأقوال الحميدة التي وردت في الشريعة الإسلامية ، من أجل بناء مجتمع إسلامي فاضل والأخلاق هي عنوان الشعوب ، وللأخلاق دور كبير في تغيير الواقع الحالي إلى الأفضل ، قال تعالى : **﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾** (١) ، فقد وصف الله ﷺ رسوله الكريم بهذا الخلق العظيم ، وعن أم المؤمنين عائشة لما سئلت - رضي الله عنها - عن خلق النبي ﷺ قالت : " كان خلقه القرآن " .

فقد اهتم المسلم باكتساب الأخلاق الحميدة والابتعاد عن العادات السيئة ، لذلك قال رسول الله ﷺ : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " (٢) ، فبهذه الكلمات حدد الرسول الكريم الغاية من بعثته أنه يريد أن يتم مكارم الأخلاق في نفوس أمته والناس أجمعين ويريد للبشرية أن تتعامل بقانون الخلق الحسن الذي ليس فوقه قانون .

وعن أبي ذر الغفاري قال : قال رسول الله ﷺ : " اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن " (٣) .

تقوم القيم الأخلاقية ببث روح الخير لدى الإنسان وتجعله يتحلى بالمبادئ الخلقية الحميدة ، كما تطهر النفس البشرية من الرذائل والشرور .

إن الكرم من الأخلاق الحميدة عند العرب فقد مدح الشعراء الكرماء من ساداتهم

١ - سورة القلم ، الآية : ٤ .

٢ - صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق مصطفى الديب ، ط ٣ ، دار إحياء التراث ، بيروت ١٤٠٧ هـ ، ص ١٤٦ .

٣ - المصدر نفسه ، ص ١٤٦ .

، وجعلوا الكرم دليل الرفعة والفخار وغاية المجد لما فيه من الإيثار وعلو الهمم والأقدار ، فهو نقيض البخل واللؤم وفي فقدته مذمة وعار .

ولقد كانت الشجاعة والكرم من أبرز صفات المجتمع العربي الجاهلي وظهر منهم من عرف بجوده وسخائه ، وكان من أبرزهم حاتم الطائي الذي كان مضرب المثل بالكرم .

مفهوم الكرم لغة :

الكرم ضد البخل ، والكرم يعني العطاء والجود ، يقال : كَرَّمَ فلان كرمًا وكرامة : أعطى بسهولة ، وجاد فهو كريم جمع كرماء وكرام ، وضده أيضاً البخل .

وكرمه كَرَّمًا غلبه في الكرم ، ويقال : رجل كَرَم أي كريم ، وأرض كَرَمَ طيبة ، والتَكَرَّمَ تكلف الكرم .

قال المتلمس:

تَكْرَمَ لِتَغَادَ الْجَمِيلِ وَلَنْ تَرَى أَخَا كَرَمٍ إِلَّا بَأَن يَتَكْرَمًا ^(١)

والكرم اصطلاحاً : هو الإعطاء بسهولة وعن طيب نفس ، فالكريم هو المنفق ماله " وإنه لهش ودمث ويتهلل وجهه ويعرف السرور في وجهه " ^(٢) .

إن حياة العرب في الصحراء والظروف القاسية دفعتهم إلى الكرم والجود ، فالعربي لا يتردد في أن يقري ضيفه الطارق ، وخير مثال على ذلك الصعاليك الذين ضرب بهم المثل في الكرم بالرغم من فقرهم فقيل : " كل صعلوك جواد " ^(٣) ، لقد تأصلت هذه العادة في نفوسهم لدرجة أن الغني والفقير على حد سواء في الكرم .

١ - لسان العرب مادة (كرم) ١٥ / ١٤٤-١٤٩ . المعجم الوسيط ٢ / ٧٩٠-٧٩١ .

٢ - تهذيب الألفاظ ، ابن السكيت ، هذب الشيخ أبو زكريا التبريزي ، ص ٢٠٢ .

٣ - مجمع الأمثال ، الميداني ٢ / ١٥٩ .

فاكرام الضيف من أبرز القيم التي أوصى بها الشعراء الجاهليون ، فمن رحم المعاناة في تلك الصحراء القاحلة ولدت هذه القيمة الإنسانية ، وهذا الخلق النبيل ، ليكون مظهراً من مظاهر التعاون على ظروفهم القاسية ، ومن ثم فهم معرضون أثناء رحلاتهم الدائبة في مجاهل الصحراء إلى أن ينفذ ما معهم من زاد ، وإذا لم يعمل الكرماء على نجدة هؤلاء الذين امتحنوا بنفاذ زادهم أو ضلوا طريقهم ، وتقطعت بهم السبل تعطلت الحياة في الصحراء (١) .

دوافع الكرم : طبيعة الحياة الجغرافية :

فقد كانت البيئة العربية صحراء قاحلة ، وسكانها بدو في ترحال مستمر فراراً من الجذب وبحثاً عن موارد الماء والكأ ، تلك البيئة جعلت العربي يدرك قيمة إقراء الضيف وإعانة المحتاج ونصرة المظلوم ، وغيرها من القيم النبيلة ، فكان يتشبث بها حتى تعم وتنتشر ويعود إليه في النهاية خيرها ويشمله أثرها .

طبيعة الحياة الاجتماعية :

حيث انتشرت في البيئة العربية صفة حب الفخر والتباهي بمكارم الأخلاق ، وخصال الكرم والسقاء ، فأحب العربي أن يتغنى بهذه الفضائل والمثل العليا ، يقول حاتم الطائي المشهور بكرمه :

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ ثَاوِيَا وَمَا فِي إِيَّاكَ مِنْ شِيْمَةِ الْعَبْدِ (٢)

كان حاتم يبذل الغالي والنفيس في سد جوع عابر أو ضيف نازل وإيثاره على نفسه في أحيان كثيرة .

وهذا زهير بن أبي سلمى يمدح سناناً قائلاً :

نِعَمَ الْفَتَى الْمَرْيُ أَنْتَ إِذَا هُمْ حَضَرُوا لَدَى الْحُجَرَاتِ نَارَ الْمَوْقِدِ
خَلِطَ أَلُوفٌ لِلْجَمِيعِ بَيْتِهِ إِذَا لَا يَحُلُ بِحَيْزِ الْمُتَوَحِّدِ

١ - الفتوة عند العرب ، عمر الدسوقي ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ٦٠ .

٢ - ديوان حاتم الطائي ، ص ٩ .

يَبْسِطُ الْبُيُوتَ لِكَي يَكُونَ مَظِنَّةً مِنْ حَيْثُ تَوَضَّعُ جَفَنَّةُ الْمُسْتَرْفِدِ
عَوَّدَتْ قَوْمَكَ إِنَّ كُلَّ مُبَرِّزٍ مَهْمَا يُعَوِّدُ شِمِيَّةً يَتَعَوِّدُ (١)

بدأ مدحه بالكرم في الوقت الصعب الشديد جداً في شدة الشتاء ، فلا ترى ناراً خادمة لكثرة الأضياف ، وقال (نعم الفتى المري أنت) ، وهي كلمة مجملّة تستدعي تساؤلاً عن كونه كذلك ، ووصفه بصفات كلها معانٍ في الكرم فهو كثير العطاء خلط ألوف يبسط البيوت لكي يظن الناس عنده خيراً وكلها معانٍ محورها الكرم والجود والعطاء والألفة .

ولقد كثر إكرام الضيف في الشعر الجاهلي يقول الأسود بن يعفر النهشلي (٢) :

وَإِنِّي لِأَقْرِي الضَّيْفَ وَصَّى بِهِ أَبِي وَجَارُ أَبِي التَّيْجَانُ ظَمَانُ جَائِعٍ

فإكرام الضيف حق ، لا يجوز التفريط فيه ولا التهاون ، لأن التقصير في هذا الحق يلحق به اللعنة والعار مدى الدهر يقول عبد قيس بن خفاف البرمجي (٣) :

وَالضَّيْفَ أَكْرِمُهُ فَإِنَّ مَبِيتَهُ حَقٌّ وَلَا تَكُ لُعْنَةً لِلنَّزْلِ

وَاعْلَمْ بَأَنَّ الضَّيْفَ مُخْبِرُ أَهْلِهِ بِمَبِيتِ لَيْلَتِهِ وَإِنْ لَمْ يُسْأَلِ

فقد مجدّ العربي هذا الخلق الكريم تمجيداً يفوق كل شيء وكان واقع حياة العرب الاجتماعية في ذلك العصر دافعاً أساسياً يجعل من هذا الخلق حاجة من حاجات الناس أو ضرورة اجتماعية لذلك افتخر العربي بهذا الخلق ، قال حاتم

١ - ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص ١٩٨ . شيمة : الخلق (اللسان ، مادة شيم .)

٢ - ديوان الأسود بن يعفر ، صنعه نوري حمودي القيسي ، وزارة الثقافة والإعلام بغداد ١٩٧٠م ، ص ٤٥ .

٣ - المفضليات ، المفضل الضبي ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، مصر ، ق ١١٦ ، ص ٤١٠ .

الطائي مخاطباً زوجه (١) :

إذا ما صنعت الزاد ، فالتمسي له أكيلاً ، فإني لست آكله وحدي

يظهر لنا أن الكرم من السجايا التي نبتت في الصحراء وتخول لصاحبها الارتقاء إلى سلم المجد والرئاسة ، وقد ظلت هذه الفضيلة ميزة للعربي في باديته المجدة يتغني بها في شعره ، يقول طرفة بن العبد في ذلك (٢) :

نُقِّلَ لِلْحَمِّ فِي مَشَاتِنَا نُحْرَ لِلنَّيْبِ طَرَادُ الْقَرَمِ (٣)

فقد تأصلت هذه الفضيلة في نفوس العرب على الرغم من ظروفهم القاسية ، خاصة عند اشتداد الجذب في الشتاء ، ولكن هذا الجذب لم يحمل العربي على الحرص والبخل ، بل دفعه إلى العطف والكرم والجود ، وإيثار الفقراء والمبيت على الطوى ، وقد ضرب المثل في الكرم بالصعاليك رغم فقرهم ، فقد افتخر عروة بن الورد باقتسام الناس أمواله ومشاركتهم له في طعامه وشرابه ، وفي هذا دليل كرمه وجوده ، فيقول (٤) :

إِنِّي إِمْرُؤٌ عَافِي إِنَائِي شِرْكَةٌ وَأَنْتَ إِمْرُؤٌ عَافِي إِنَائِكَ وَاحِدٌ

أَتَهْزَأُ مِنِّي أَنْ سَمِنْتَ وَأَنْ تَرَى بَوَجْهِي شُحُوبَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ جَاهِدٌ

أُفْرِقُ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَارَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدٌ

يعد عروة بن الورد من أحب الشعراء وأكثرهم جاذبية لما اشتمل عليه هذا

١ - ديوان حاتم الطائي ، ص ٤٣ .

٢ - طرفة بن العبد ، الديوان ، ص ١٠٦ .

٣ - النيب : جمع ناب ، وهي المسنة من الإبل ، والقرم : شهوة اللحم .

٤ - عروة بن الورد ، الديوان ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٤ م ، ص ٢٩ .

عافي إنائي شركة ، أي يأتيني من يشركني فيه . والحق جاهد : أي يجهد الناس . أقسم جسمي : جسمه هنا يعني قوت جسمه أي طعامه .

الشاعر الجاهلي الفطري من آداب إنسانية وأخلاق كريمة ، تتجلى في كل ما كان يصنعه من إحسان ويبذله من عطف وجود تجاه الصعاليك والمرضى والضعفاء ، وهذا ما جعل معاوية ابن أبي سفيان يقول : " لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم ، وحمل عبد الملك بن مروان على أن يقول : " ما يسرنى أن أحداً من العرب ممن ولدني لم يلدني إلا عروة بن الورد " .
والعربي عندما يكون مضيفاً لا يقبل أن يكون لعنة للضيوف مهما كلفه ذلك ، فهو يبذل قصارى جهده لإكرام ضيفه فهذا عبد قيس بن خفاف يوصي ابنه قائلاً (١) :

وَالضَيْفَ أَكْرَمَهُ فَإِنَّ مَبِيتَهُ حَقٌّ وَلَا تَكْ لُعْنَةً لِلنُّزْلِ
وَأَعْلَمْ بِأَنَّ الضَّيْفَ مُخْبِرُ أَهْلِهِ بِمَبِيتِ لَيْلَتِهِ وَإِنْ لَمْ يُسْأَلِ

وهذا المتقرب العبدى يتغنّى بإكرام جاره قائلاً (٢) :

أَكْرَمُ الْجَارِ وَأَرعى حَقَّهُ إِنَّ عِرْفَانَ الْفَتَى الْحَقُّ كَرَمٌ

أما سلامة بن جندل فيصور لنا فخره واعتزازه بقومه لأنهم يجودون وقت الشدة والجذب ، فيقول :

قَوْمٌ إِذَا صَرَّحَتْ كَحْلٌ بِبُوتِهِمْ عِزُّ الدَّلِيلِ وَمَأْوَى كُلِّ قَرْضُوبٍ (٣)

عرّف الجاهليون بالقرى ، أي إطعام الأضياف ، والجود خلة يتفاخر بها العرب ويتسامون ، حتى أن بعضهم أوقد ناراً ليراها الأضياف فيستدلون بها على المنزل

١ - المفضليات ، المفضل الضبي مفضلية رقم ١١٦ .

٢ - المصدر السابق ، مفضلية رقم ٧٧ . شرح ديوان المتقرب العبدى ، تحقيق د. حسن حمد ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٦ ، ص ٧٣

٣ - المصدر نفسه ، المفضلية رقم ٢٢ .

كحل : اسم للسنة الشديدة المجذبة . القرضوب : الفقير .

، وتسمى هذه النار (نار القرى) أي نار الضيافة ، وأقفر رجل عندهم يقوم قدر حاجته وإمكانه بإكرام من يفد عليه ، والبخل سجية مذمومة يُعاب بها ، وتكون مسببة بين الناس ، وهو لؤم ، واللؤم قبيح بالعربي .

ولا يقتصر واجب المضيف على تقديم الطعام لضييفه والترحيب به ، بل عليه حمايته والدفاع عنه مادام في بيته ، فإذا اعتدى عليه كان الاعتداء كأنه وقع على المضيف ، وخزي وكسف اسمه بين الناس ، يلحق العار به وبأسرته ، فلا بد له من حماية ضيفه والدفاع عنه مهما كان شأنه وحاله من ضعف وقفر ، فإن كان عاجزاً استدعى قومه للدفاع عن اسمه من المعتدين ^(١) ، ونكر أن (بني أفضى بن نذير بن قسر بن عبقر) وهم من بجيلة كانوا (لم ينزل بهم نازل قط إلا عمدوا إلى ماله فحبسوه ودفعوه إلى رجل يرضون أمانته ومأثوره بأموالهم ما أقام بين أظهرهم ، فإذا ظعن أدوا إليه ماله ورحلوا معه ، فإن مات ودوه ، وإن قتل طلبوا بدمه ، وإن سلم الحقوه بمأمنه ، وفي ذلك يقول عمرو بن الخثارم :

ألا من كان مغترباً فإني لغريبته على أقصى دليل

يعينون الغني على غناه ويثرو في جوارهم القليل ^(٢)

ويبدو أن العربي كان ينتصر بكرمه على غريزتين هما : حب البقاء وحب التملك ، وهو بذلك يبرهن على كرم أخلاقه ورفعة مكانته وقوة عزمته ، لأنه يرقى بنفسه إلى درجات الكمال والمروءة ^(٣) .

وَقَرْن عروة بن الورد بحاتم الطائي الذي يُعدّ في نظر العرب حتى الآن المثل الأعلى للكرم ، فقد قال عبد الملك بن مروان : " من زعم أن حاتمًا أسمح الناس

١ - يُنظر ، د. جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ / ٦٨ .

٢ - المصدر السابق ٥ / ٦٩ .

٣ - يُنظر ، الفتوة عند العرب ، عمر الدسوقي ، ص ٧٢ - ٧٣ .

فقد ظلم عروة بن الورد " (١) .

وكان عروة يوزع ما يغنمه من الأثرياء على المحتاجين الذين كانوا يلتفون حوله ويلوذون به وقت الجذب والقحط (٢) .

لقد صور لنا عروة بن الورد صور كرمه تصويراً رائعاً ، فهو على حظ كبير من الإنسانية ، لأنه يعطف على الفقراء الذين يشاركونه إناءه ، ويكتفي بالماء الخالص في أيام الشتاء الباردة ليوفر لهم الطعام ، بل يراه تقسيماً بجسمه في أجسامهم حتى أصبح هزلاً شاحباً ، فيقول (٣) :

إِنِّي إِمْرُؤٌ عَافِي إِنَائِي شِرْكَةً وَأَنْتَ إِمْرُؤٌ عَافِي إِنَائِكَ وَاحِدُ
أَتَهْزَأُ مِنِّي أَنْ سَمِنْتَ وَأَنْ تَرَى بِوَجْهِي شُحُوبَ الْحَقِّ وَالْحَقُّ جَاهِدُ
أَمْزَقَ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسَوْ قَرَارَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدُ
وهذا الشعر جعل عبد الملك بن مروان يقول : " ما سرتني أن أحداً من العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عروة بن الورد " (٤) .

وهذه الخنساء تقول في رثاء صخر (٥) وتفتخر بكرمه :

وَإِنَّ صَخْرًا لَوَالَيْنَا وَسَيِّدَنَا وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتَوُ لَنَحَارُ
لا يقتصر كرمهم على إطعام الطعام ، بل يتعداه إلى جبر المحروب السليب الذي يفقد ماله ، يلجأ إليهم فيعطونه حتى يصبح واحداً منهم ، يقول طرفة بن العبد (٦) :

١ - الأغاني ، الأصفهاني ٣ / ٧١ .

٢ - نفس المصدر ٣ / ٧٥ .

٣ - ديوان عروة بن الورد ، ص ٢٩ . وشعراء النصرانية قبل الإسلام ، لويس شيخو ٦ / ٨٨٧ .

٤ - الأغاني ، الأصفهاني ٣ / ٧١ .

٥ - ديوان الخنساء ، ص ٣٦ .

٦ - ديوان طرفة بن العبد ، ص ٩١ .

خَيْرُ حَيٍّ مِنْ مَعَدٍّ عَلِمُوا لِكَفَيٍّ وَلِجَارٍ وَإِنْ عَمَّ (١)
يَجْبُرُ الْمَحْرُوبَ فِينَا مَالَهُ بِنِئَاءٍ وَسَوَامٍ وَخَدَمَ (٢)

وقال الزبيرقان بن بدر (٣) :

ونحن يُطعم عند المحل مطعمنا من السديف إذا لم يؤنس الفزع
فما ترى الناس تأتينا سراتهم من كل أوبٍ هويّاً ثم يندفعوا
وننحر الكوم عبثاً في أرومتنا للنازلين إذا ما أنزلوا شعبوا

إن الكرم من السجايا التي تنبت في الصحراء وتخلو لصاحبها الارتقاء إلى سلم
المجد والرئاسة ، وقد ظلت هذه الفضيلة ميزة للعربي في باديته المجيدة يتغنى
بها في شعره ، وقد كثر ذكر الكرم في الشعر الجاهلي نورد هذه الأبيات التي
تتقل لنا صوراً للكرم امتاز بها هذا الشعر .

صورة حية لصعلوك عاشها من خلال تجاربه القاسية ، وإنها مثل رفيع من مثل
النبيل الإنساني السامي .

لقد تغنى الشعراء بالفضائل والسجايا الطيبة يقول عمرو بن الأهتم مصوراً كرمه
وجوده حين يشتد الجذب وتقسو الحياة ودعوته لضيغه الذي يضل الطريق ليلاً
وتقديم أفضل وأكرم ناقة لذبحها لقرى الضيف .

ومُسْتَبِجٌ بَعْدَ الْهَدُوءِ دَعْوَةٌ وَقَدْ حَانَ مِنْ نَجْمِ الشَّتَاءِ خَفُوقُ (٤)
يَعَالِجُ عَرِيناً مِنَ الْقَرِّ بَارِداً تَلْفُ رِيَاخَ ثَوْبِهِ وَيَرْوُقُ (٥)

١ - الكفي : المكافئ في النسب والمماثل .

٢ - المحروب : الذي سلب ماله . السوام : الإبل السائمة في المرعى .

٣ - ديوان حسان بن ثابت ، ص ٩٨ . قصيدة رقم ٢٢ .

٤ - المفضليات ، مفضلة رقم ٢٣ . المستبج : الرجل يضل الطريق ليلاً ..

٥ - العرين : الأنف ، والمراد به أول الليل . ويروق : المراد وتلمح له بروق .

- تَأَلَّقَ فِي عَيْنِ مِنَ الْمَزْنِ وَادِقِ لَهُ هَيْدَبٌ دَانِي السَّحَابِ دَفُوقُ (١)
أَصْفَتْ فَلَمْ أَفْحَشْ عَلَيْهِ وَلَمْ أَقْلُ لِأَحْرَمِهِ إِنَّ الْمَكَانَ مَضِيقُ
فَقُلْتُ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا صَبُوحٌ رَاهَنٌ وَصَدِيقُ (٢)
وَقَمْتُ إِلَى الْبَرْكِ الْهَوَاجِدِ فَاتَّقْتُ مَقَاحِيذُ كَوْمٍ كَالْمَجَادِلِ رَوْقُ (٣)
بِأَدْمَاءٍ مِرْيَاحِ النَّتَاجِ كَأَنَّهَا إِذَا عَرَضَتْ دُونَ الْعِشَارِ فَتَنِيْقُ (٤)
بِضَرِيَّةٍ سَاقٍ أَوْ بِنَجْلَاءِ ثَرَّةٍ لَهَا مِنْ أَمَامِ الْمَنْكَبَيْنِ فَتَنِيْقُ (٥)
فَبَاتَ لَنَا مِنْهَا وَلِلضَّيْفِ مَوْهِنًا شِوَاءٌ سَمِينٌ زَاهِقٌ وَغَبُوقُ (٦)

والكرم أعظم ما يكون في أيام الشدة والجذب ، فقد افتخر طرفة بن العبد بكرم قومه وقت الشدة قائلاً (٧) :

- نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفْلَى لَا تَرَى الْآدِبَ فِينَا يَتَنَقَّرُ (٨)
حِينَ قَالَ النَّاسُ فِي مَجْلِسِهِمْ أَقْتَارَ ذَاكَ أَمْ رِيحُ قَطْرِ (٩)
بِجِفَانٍ تَعْتَرِي نَادِيَتَا مِنْ سَدِيفٍ حِينَ هَاجَ الصَّنِيرُ (١٠)

١ - تألق : تلمع ، يعني البروق . العين : مطر أيام لا يقلع . المزني : السحاب .

٢ - الصبوح : الشرب بالغداة . الراهن : الدائم الثابت .

٣ - البرك : إيل الحي كلهم . الهواجد : النيام . المقاحيد : الإبل العظام الأسنة .

٤ - الأدماء : البياض . العشار : جمع عشاء ، وهي الناقة مضى عليها من لقحها عشرة أشهر .
الفتيق : الفحل . والمعنى كانت أكرمهن وأفضلهن فاخترها لقرى الضيف .

٥ - بضرية ساق : قطع عراقيها بسيفه . النجلاء : الطعنة الواسعة .

٦ - موهناً بعد وقت من الليل . الزاهق : الذي ليس بعد سمنه سمن . الغبوق : شراب العشى .

٧ - ديوان طرفة بن العبد ، ص ٥٥ - ٥٦ .

٨ - ندعو الجفلى : نعم بدعوتنا إلى الطعام ولا نخص أحداً ، الآدب : الداعي وضد الجفلى : النقرى ، وهي أن يخص بعض الناس بدعوته دون بعض .

٩ - أقتار : أي رائحة لحم يشوى . القطر : العود الذي يتبخر به .

١٠ - تعتري : تأتي . السديف : قطع السنام . الصنبر : البرد الشديد .

كَالْجَوَابِي لَا تَنِي مُتْرَعَةً لِقَرَى الْأَضْيَافِ أَوْ لِلْمُحْتَضِرِ (١)
ثُمَّ لَا يَخْزُنُ فِينَا لَحْمُهَا إِنَّمَا يَخْزُنُ لَحْمُ الْمُتَخِرِ (٢)

وهذه صورة رائعة أخرى يرسمها لنا طرفة يفتخر فيها بكرم قومه إنها لوحة تمثل الشتاء بسمائه الكالحة ، ورياحه العاصفة المترية ، وبرده القارس ، وجليده المتساقط كأنه القطن في هذه الشدة تذبح كرام الإبل من العشار السمان لتقدم للجياح فيقول (٣) :

وَأَنَا إِذَا مَا الْغَيْمُ أَمْسَى كَأَنَّهُ سَمَاحِقُ ثَرَبٍ وَهِيَ حَمْرَاءُ حَرْجَفُ (٤)
وَجَاعَتْ بِصُرَادٍ كَأَنَّ صَقِيعَةً خِلَالَ الْبُيُوتِ وَالْمَنَازِلِ كُرْسَفُ (٥)
وَجَاءَ قَرِيعُ الشَّوْلِ يَرْقُصُ قَبْلَهَا إِلَى الدِّفَاءِ وَالرَّاعِي لَهَا مُتَحَرِّفُ (٦)
نَزْدُ الْعِشَارِ الْمُتَقِيَاتِ شَظِيهَا إِلَى الْحَيِّ حَتَّى يُمِرَّعَ الْمُتَنَصِّيفُ (٧)
تَبَيَّتْ إِمَاءُ الْحَيِّ تَطْهِي قُدُورَنَا وَيَأْوِي إِلَيْنَا الْأَشْعَثُ الْمُتَجَرِّفُ (٨)

ويبدو أن وصف كلابهم بالجبين دلالة على كرمهم لأن الكريم يستقبل ضيوفا كثيرين فيعود كلبه رؤية الناس ، فلا ينبج في وجههم ولا يعقرهم ، يقول حاتم الطائي (٩) :

- ١ - لا تني : لا تفتر . المحتضر : النازل على الماء .
- ٢ - يخزن اللحم : تغيرت رائحته وفسد .
- ٣ - يُنظر : طرفة بن العبد حياته وشعره ، محمد علي الهاشمي ، ص ١٣٤ - ١٣٥ . ديوان طرفة بن العبد ، ص ٦٨ .
- ٤ - السُمَحِيقُ : شحم دقيق . وترب الشاة : شحمها . والحرجف : الشديدة الباردة .
- ٥ - صرّاد : سحاب لا ماء فيه . كرسف : قطن .
- ٦ - قريع الشول : فحل الإبل . يرقص : يسرع . المتحرف : أي يمشي بعيداً عنها من شدة البرد .
- ٧ - العشار : الحوامل من النوق . المتقيات : السمينات . شظيها : عظم ساقها .
- ٨ - المتجرف : الذي جرفت السنون ماله .
- ٩ - ديوان حاتم الطائي ، ص ٦٢ - ٦٣ .

إذا ما بخيلُ الناسِ هَرَّتْ كِلابُهُ وَشَقَّ عَلَى الضَّيْفِ الضَّعِيفِ عَقُورُهَا (١)
فَاتَيْ جَبَانُ الكَلْبِ بَيْتِي مُوطًّا أَجُودُ إِذَا مَا النَفْسُ شَحَّ ضَمِيرُهَا (٢)
وَإِنَّ كِلَابِي قَدْ أَهَرَّتْ وَعَوَّدَتْ قَلِيلٌ عَلَى مَنْ يَعْزِرُنِي هَرِيرُهَا (٣)
وَمَا تَسْكَ قِدْرِي إِذَا النَّاسُ أَمَحَلَتْ أَوْتَقُهَا طَوْرًا وَطَوْرًا أُمِيرُهَا (٤)
وَأَبْرَزُ قِدْرِي بِالْفَضَاءِ قَلِيلُهَا يُرَى غَيْرَ مَضْنُونٍ بِهِ وَكَثِيرُهَا

ويشعر الشاعر بمآثره ، ويتغنى بخلائقه وسجاياه ، وينوه بالقيم الاجتماعية التي تحلى بها فرفعته إلى أعلى المنازل يقول عوف بن الأحوص : (٥)

وَمُسْتَبِجٌ يَخْشَى الْقَوَاءَ وَدُونَهُ مِنْ اللَّيْلِ بَابًا ظَلَمَةً وَسُورُهَا (٦)
رَفَعْتُ لَهُ نَارِي فَلَمَّا اهْتَدَى بِهَا زَجَرْتُ كِلَابِي أَنْ يَهَرَّ عَقُورُهَا (٧)
فَلَا تَسْأَلْنِي وَاسْأَلِي عَنْ خَلِيقَتِي إِذَا رَدَّ عَافِي الْقَدْرِ مَنْ يَسْتَعِيرُهَا (٨)
تَرَى أَنَّ قِدْرِي لَا تَزَلُ كَانُهَا لِيذِي الْفُرُوزَةِ الْمَقْرُورِ أَمْ يَزُورُهَا (٩)
مُبَرَّزَةٌ لَا يُجْعَلُ السِّرُّ نُونُهَا إِذَا أُخْمِدَ النَّيِّرَانُ لَأَحَ بِشِيرُهَا (١٠)
إِذَا الشَّوْلُ رَاحَتْ ثُمَّ لَمْ تَقْدِرْ لَحْمَهَا بِأَلْبَاتِهَا ذَاقَ السِّنَانُ عَقِيرُهَا (١١)

١ - هرت كلابه : هرت في وجه الضيوف لتبعدها .

٢ - موطاً : ممهد مسهل .

٣ - يعزريني : يأتيني .

٤ - أوتقها : أجعلها على الأتافي وهي حجارة الموقد . أميرها : آتيها بالمونة .

٥ - المفضليات ، المفضل الضبي ، رقم ٣٦ .

٦ - مستبج : من ينبج حتى ترد عليه الكلاب ، فيعرف أن حياً قريباً منه . القواء : الفلاة .

٧ - يهر : ينبج نبجاً خفيفاً . العقر : العاض .

٨ - عافي القدر : مستعيرها .

٩ - نور الفروزة : السائل . المقرور : الذي اشتد به البرد .

١٠ - بشيرها هنا : ضوءها .

١١ - الشول : الإبل العظيمة التي لا تحلب . راحت : رجعت ، يقول إذا رجعت الإبل من مراعيها عقرها لأهل الحي والضيقة .

كان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا في ديارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس ، من عشيرته في الشدة ، ثم يحفر لهم الأسراب ، ويكنف عليهم الكنف ، ويكسبهم ، ومن هنا عد من أصحاب الكرم ، والسماحة والسخاء .

وهو يقول في شعر له ، إن فراشه فراش الضيف ، وأن بيته بيت للضيوف ، يجالس الضيف ويحادثه ، فالحديث جزء من القرى (١) :

فِرَاشِي فِرَاشُ الضَّيْفِ وَالْبَيْتُ بَيْتُهُ وَلَمْ يَلْهِنِي عَنْهُ غَزَالٌ مُقْتَعٌ
أَحَدْتُهُ إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقُرَى وَتَعَلَّمَ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ

فقد احتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأمجاد ، وسمحاتها الأجواد ؛ لتهز أنفسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم (٢) ، وقد أسهم الشعر في ترسيخ هذه المعاني الأخلاقية التي تميزت طبيعة الصحراء بمجموعة من الفضائل النفسية ونلمس تجلي هذه الفضائل في العربي متمثلة في الشجاعة والكرم وإغاثة الملهوف وحماية الضيف والوفاء بالوعد والعهد ، وتعد هذه الفضائل مقياس الفضل ومعياري السيادة والرئاسة .

وهذا ليبيد بن ربيعة العامري يفتخر بقبيلته ويصور قومه وكأنهم غدو مثلاً للكرم المطلق من ذلك قوله :

فَلَا وَأَبْيَكُ مَا حَيَّ كَحَيِّ لَجَارٍ حَلَّ فِيهِمْ أَوْ عَدِيمٍ
وَلَا لِلضَّيْفِ إِنْ طَرَقَتْ بَلِيلٌ بِأَفْنَانِ الْعِضَاهِ وَبِالْهَشِيمِ
وَرَوَّحَتْ اللَّفَاحُ بِغَيْرِ دَرٍّ إِلَى الْحُجَرَاتِ تُعْجَلُ بِالرَّسِيمِ (٣)

١ - المصدر نفسه ٩ / ٦٢٦ .

٢ - ابن رشيقي ، العمدة ١ / ٢٠ .

٣ - ديوان ليبيد بن ربيعة ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

ولم يذهب عن هذا المعنى في مفاخرته بقومه في موضع آخر بقوله :

إِنَّا إِذَا انْتَقَتِ الْمَجَامِعُ لَمْ يَزَلْ مِنَّا لِرِزْزٍ عَظِيمَةٍ جِشَامُهَا
وَمُقَسَّمٌ يُعْطَى الْعَشِيرَةَ حَقَّهَا وَمُعْذَمِرٌ لِحُقُوقِهَا هَضَامُهَا
فَضْلاً وَذُو كَرَمٍ يُعِينُ عَلَى النَّدَى سَمَحٌ كَسُوبُ رَغَائِبِ غَنَامِهَا (١)

إن الشاعر يؤكد أن قومه صاروا منزلاً للكرم والعدل والطهر والعقل .
أما طرفة بن العبد فيشيد بفضائل قبيلته وقد خلع على قومه صورة مثالية للكرم
والنجدة ، فيقول :

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ إِذَا أَزِمَ الشِّتَاءُ وَدَوَّخِلَتْ حُجْرُهُ
يَوْمًا وَدَوْنِيَّتِ الْبُيُوتُ لَهُ فَتَنَى قَبِيلَ رَبِيعِهِمْ قِرْرُهُ
رَفَعُوا الْمَنِيخَ وَكَانَ رِزْقُهُمْ فِي الْمُنْقِبَاتِ يُقِيمُهُ يَسْرُهُ
تَلْقَى الْجِفَانَ بِكُلِّ صَادِقَةٍ ثُمَّتْ تَرَدَّدُ بَيْنَهُمْ حَيْرُهُ (٢)

مدح الكرماء :

إن الكرم الذي تغنى به الجاهليون يختلف من حيث الدرجة ، فإن يعطي الإنسان
شيئاً ما وهو ميسور الحال ، ليس بنفس درجة العطاء حين يكون ذلك الإنسان
أولى بهذا العطاء وفي هذا المعنى يقول الشاعر (٣) :

إِذَا سَنَةٌ عَزَّتْ وَطَالَ طَوَالُهَا وَأَقْحَطَ عَنْهَا الْقَطَرُ وَاصْفَرَّ عَوْدُهَا
وُجِدْنَا كِرَاماً لَا يُحَوَّلُ ضَيْفُنَا إِذَا جَفَّ فَوْقَ الْمَنْزِلَاتِ جَلِيدُهَا

فالشاعر هنا يصور كرمه وكرم قومه تصويراً ينم عما يتميز به هو وقومه من

١ - المصدر نفسه ، ص ١٧٩ .

٢ - ديوان طرفة بن العبد ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

٣ - د. بوجمعة بويغيو ، جدلية القيم في الشعر الجاهلي ، ص ٦٤ .

سخاء مطلق ، فهم كرماء أسخياء حتى في أخرج الأوقات حين ينقطع المطر وتجذب الأرض بعد طول انتظار ، وفي ذلك كناية على أن الكرم شيء متأصل في نفوسهم ، إذ هو من الخصال التي تلازمهم في السراء والضراء .

إن الشعراء الجاهليين رسخوا قيماً سار على خطاها المجتمع الجاهلي عامة ؛ لأن هذا المجتمع أو ذاك مثل بقية المجتمعات الأخرى حكمته أخلاق وعادات وتقاليد تتفق وحاجات وصور هذا المجتمع أو ذاك ، فقد افتخر الشاعر الجاهلي بأخلاق وقيم كانت ثمرة حاجاته وصور معيشتة ، فقد أشاد " بكرم العنصر وقوة العصبية ومنعة الجانب والشجاعة والكرم والإباء والوفاء والمروءة ، وما إلى ذلك " (١) .

فالكرم قيمة أخلاقية سامية مجدها الجاهلي إلى حد المبالغة وراحت مثلاً لصفة من صفاتها المتأصلة فيها ، " فقد مجد العربي هذا الخلق الكريم تمجيداً يفوق كل شيء ، وكان واقع حياة العرب الاجتماعية دافعاً أساسياً يجعل من هذا الخلق حاجة من حاجات الناس ، وضرورة اجتماعية ، لذلك كان أول ما يذكر من الفضائل في باب المديح أو باب الفخر ، وكان أول ما يسلب من الفرد أو القوم في باب الهجاء " (٢) ، وبكلمة أدق فإن الكرم يمثل لدى العرب قيمة إنسانية سامية .

لقد أدرك الشاعر الجاهلي أهمية الكلمة وعرف قيمتها وحاجة السادة إلى إذاعة محامدهم ونشر فضائلهم بأشعار تجعلهم يهتزون تيهاً وطرباً ، فتحملهم على العطاء والبذل ، فهذا طرفة بن العبد يرسم صورة إنسانية يمدح فيها قتادة بن مسلمة الحنفي يقول فيها (٣) :

١ - الفخر والحماة : مجموعة من الباحثين ، دار المعارف ، ص ٩ .

٢ - سعيد منصور ، القيمة الخلقية في الخطابة العربية ، ص ٣٩ .

٣ - ديوان طرفة بن العبد ، ص ١٤٥ - ١٤٦ . تحقيق علي الجندي ١٩٥٨ .

- أبلغ قتادة غير سائله مني الثواب وعاجل الشكم (١)
 إني حمدتك للعشيرة إذ جاءت إليك مِرْقَة العظم (٢)
 ألقوا إليك بكل أزملة شعناء تحمل مُنْقِع البرم (٣)
 وفتحت بابك للمكارم حين ن تواصت الأبواب بالأزم (٤)
 وأهنت إذ قدموا التلاد لهم وكذلك يفعل مُبَتِّي النعم (٥)
 فسقى بلادك غير مُفسِدها صوبُ الغمام وديمةُ تهمي (٦)

فالشاعر يقدم الشكر إلى صاحب الفضل الذي تفضل على عشيرته حين أصابتها سنة مجدية ، ففتح لهم قتادة أبوابه ، وأغدق عليهم العطاء في هذا الوقت الشديد على الناس ، ودعا الشاعر له أن تظل دياره خصبة كثيرة الخير والنعم ليقصدها كل محتاج ، نلمس من خلال هذه الصورة الرائعة أن مديح طرفة نابع من القلب صادق ، تشيع فيه أنداء المودة ويفوح منه عبير الوفاء والعرفان لقتادة الذي يعد من أجواد العرب .

وهذا الأعشى يمدح الأسود بن المنذر اللخمي وهو واحد من أخوة النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، فيقول (٧) :

١ - الشكم : العوض والجزاء على الشيء .

٢ - مِرْقَة العظم : أي جاءت هزيلة مجهودة رقيقة العظم .

٣ - شعناء : مغبرة الرأس متغيرة بسبب الهزال وسوء الحال . البرم : جمع برمة ، وهي قدر من حجارة .

٤ - الأزم : الإغلاق ، أي تغلقت الأبواب في وجه السائلين .

٥ - أهنت : بنلت . التلاد : المال الموروث .

٦ - الصوب : المطر . الديمة : السحاب يدوم مطره في لين واعتدال .

٧ - ديوان الأعشى ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

- فَرَعُ نَبْعٍ يَهْتَرُّ فِي غُصْنِ الْمَجْدِ دِ غَزِيرِ النَّدَى شَدِيدُ الْمِحَالِ (١)
عِنْدَهُ الْخَزْمُ وَالْتَقَى وَأَسَا الصَّرِ عِ وَحَمَلٌ لِمُضْلِعِ الْأَثْقَالِ (٢)
وَصِلَاتُ الْأَرْحَامِ قَدْ عَلِمَ النَّا سِ وَقَفُّ الْأَسْرَى مِنَ الْأَغْلَالِ
وَهَوَانُ النَّفْسِ الْعَزِيزَةِ لِلذِّكْ رِ إِذَا مَا انْتَقَتِ صُدُورُ الْعَوَالِي
وَعَطَاءٌ إِذَا سَأَلَتْ إِذَا الْعِذْ رُهُ كَانَتْ عَطِيَّةَ الْبُخَالِ
وَوَفَاءٌ إِذَا أَجَرَتْ فَمَا عُر رَتْ حِبَالٌ وَصَلَتْهَا بِحِبَالِ (٣)
أَرِيحِي صِلَتْ يَظُلُّ لَهُ الْقَو مُ رُكُوداً قِيَامُهُمُ لِلْهَلَالِ (٤)
إِنْ يُعَاقِبُ يَكُنْ غَرَاماً وَإِنْ يُع طِ جَزِيلاً فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي (٥)

حاول الشاعر الجاهلي أن يمدح بعض الشماثل التي كانت من دأبهم والتي كانوا يفاخرون بها ، فهذا طرفة بن العبد يستهل هذه اللوحة بمدح عمرو بن هند (٦) :

- لو كان في أملاكنا ملكٌ يعصر فينا، كالذي تعصر (٧)
لاجتبت صحنِي العراق على حرفِ أُمُونِ دَفْها أَزور (٨)
متَّعني يومَ الرِّحِيلِ بها فرَعٌ تنقَّاهُ القَداحِ يسر (٩)
تنزلُ أفنان الصَّريمِ معاً كأنَّها تروح أو تَبْكُزُ (١٠)

فقد جعل الشاعر من عمرو بن هند الفذ الذي لا ند له بين الملوك في عطائه

١ - المحال : العقوبة .

٢ - التقي : الحذر . الأسا : المداواة . الصرع : داء يبطل الحس والحركة .

٣ - غرت : أراد ضعفت ووهنت . جبل غرز : غير موثوق به .

٤ - الأريحية للندى وفعل الخير . صلت : شجاع .

٥ - العزام : الشر .

٦ - حيوان طرفة بن العبد ، ص ١٠ .

٧ - يعصر : يعطي ويمنح .

٨ - الحرف : الناقة الضامرة . الأمون : الموثقة الخلق . دفها : جنبها . أزور : مائل من نشاطها .

٩ - الفرع : قدح من أعلى الغصن . تنقاه : تخيره .

١٠ - أفنان : أنواع . الصريم : القطعة من الرمل . (اللسان مادة صرم ٢ / ٤٣٥) . تروح : تسير

وقت الرواح وهو العشي .

وجوده ولو كان فيهم مثله لاجتباب طرفه صحنى العراق على ناقته الضامرة
القوية يحتاج بحور العطاء والجود ، فالصورة الحية التي رسمها الشاعر تفصح
عن حسن ثنائه على الممدوح بوصف جميل صنعه وكرمه وهباته .

يقول زهير في مدح حصن بن جديمة الغزاري :

وأبيض فياض يذاه غمامة	على مُعْتَقِيهِ مَا تُعَبُّ نَوَافِلُهُ (١)
بكرث عليه غُدُوَّةٌ فَوُجِدَتْهُ	فَعُوداً لَدَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَائِلُهُ (٢)
يُقَدِّينَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلْمَنَهُ	وَأَعْيَا فَمَا يَذْرِيْنَ أَيْنَ مَخَاتِلُهُ
فَأَعْرَضَ مِنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مُرَرًّا	جَمُوعٍ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ فَاعِلُهُ
أَخِي ثَقَّةٌ لَا تَهْلِكُ الْخَمْرُ مَالَهُ	وَلَكِنَّهُ قَدْ يَهْلِكُ الْمَالُ نَائِلُهُ
تَرَاهُ إِذَا مَا جُنْتُهُ مَتَهَلَّلًا	كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ (٣)

إن زهير يرسم لوحة دقيقة في اقتناء المعاني ويحرص على استكمال الفضائل ،
فالممدوح عفيف لقلة إمعانه في اللذات ، وأن أمواله لا تبدد من أجلها ، ولا
تذهب هدرًا في سبيل تحقيقها ، وإنما يهلك أمواله في العطاء الذي يخفف عن
الناس ، ويمسح جراحاتهم القاسية ، وفي عمله هذا يحقق العدل ، ويشيع
خصائصه ، ويعمق جذوره في صنوف الناس ، ويعالج الجانب النفسي الذي
يصاحب العطاء ، ويلزم الجود ، وهو البشاشة التي توجي بقناعة العطاء
والتهلل الذي يؤكد خدمة الممدوح فيما يقدم عليه ، وفي ذلك منتهى الكرم ومبلغ
الضيافة بالإضافة إلى الرضا الذي يدخل إلى نفس السائل الطمأنينة حتى تشعر
بسروره واستبشاره وهو يعطيك وكأنك أنت الذي تعطيه ، وهي صورة فنية فريدة

١ - الأبيض : النقي من العيب . يذاه غمامة : تمطر يذاه بالإعطاء . فياض : سخي . المعتقون :
الذين يأتون يطلبون ما عنده .

٢ - الصريم : جمع صريمة وهي القطعة من الرمل تنقطع من مُعْظَمِهِ .

٣ - شرح ديوان زهير ، ص ١٣٩ - ١٤٢ . متهللاً : مستبشراً .

من صور الإحساس الرفيع بسمو منزلة الممدوح وصدق عطائه ، فالشجاعة مقرونة بالصفح والكرم وشرف المحتد وكلها سجايا تتوفر في ممدوح زهير .
ويبدو أن زهير كان يميل إلى جانب الخير والسلام ، لذلك جعل قصائده أوسمة يعلقها على صدر الممدوحين هرم بن سنان والحارث بن عوف كأنه يشجعهم على أعمال الخير التي كانوا يسدون بها لقومهم ولغيرهم ، وعلى هذا فإن مدحه للساعين في الصلح بين عبس وذبيان وحقن دماء القوم ، وتحمل الديات يدل على إنسانيته وتميزه وخروجه عن المألوف في عصر يدوي بفكره الأخذ بالثأر وإشعال نار الحرب وتأجيجها ، فيقول (١) :

يَمِيناً لِنَعْمِ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا عَلَى كُلِّ خَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمٍ (٢)
تَذَارَكْتُمَا عَبْساً وَذُبْيَاناً بَعْدَمَا تَقَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمٍ (٣)
وَقَدْ قُلْتُمَا إِنَّ نُدْرِكَ السَّلَمِ وَاسِعاً بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْأَمْرِ نَسْلَمُ
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ بَعِيدَيْنِ فِيهَا مِنْ عَفْوَكَ وَمَأْتَمٍ (٤)
عَظِيمَيْنِ فِي عَلِيَا مَعْدٍ هُدَيْتُمَا وَمَنْ يَسْتَبِخْ كَنْزاً مِنَ الْمَجْدِ يَعْظُمُ (٥)

إنها لوحة رائعة لشاعر يعالج أكثر الموضوعات خطورة في ذلك العصر حيث يتعقب أحداث الحرب ، ويدون ما جنى منها إلى السلم ، وحقن الدماء ، وقد تجلّى هذا الأمر في مدحه لهرم والحارث لسعيهم في الصلح بين القبيلتين وتحمل الديات ، وعلى هذا فإن مدحه لهما لم يكن لكسب أو نفع شخصي ، أكثر من كونه إعجاباً بالممدوحين ودعوتهم الإصلاحية ، ونلمح من خلال مدحه حديث

١ - شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة أبي العباس ثعلب ، ص ١٤ - ١٧ .

٢ - السحيل : الخيط المفرد أصل السحيل والمبرم أن المبرم يقتل خيطاه ثم يصيران خيطاً واحداً ، والسحيل : خيط واحد لا يضم إليه آخر . ويقال : السحيل : الذي قد مدّ ولم يقتل بعد .

٣ - عطر منشم : عطر امرأة من خزاعة كانت تباع عطراً ، وقيل إنما هو من التشميم في الشر .

٤ - خير موطن : خير منزلة . العفوق : قطيعة الرحم .

٥ - عليا معد : يريد أعلاها . يستبخ : يجده مباحاً ، ويعظم : يحيي بأمر عظيم .

شاعر يعرف كيف يصوغ معانيه في إطار إنساني ذي طابع متميز ، فنحن لا نجد في كلامه تعاضلاً ولا تناقضاً^(١) ، ونعلم أن شعره كان له الدور الرائع في رأب صدع ما أثارته حرب داحس والغبراء ، فكان داعياً إلى التعقل والحلم ومدح المصلحين ، ففاز بتقدير العرب لأنه يميل إلى جانب الخير والسلام في حين كانت بلاد غطفان ساحة للعداء الشديد والحرب المستمرة بين قبيلتي عبس وذبيان ، وكانت الحروب بينهما سبباً في ظهور ثروة كبيرة من شعر مليء بالفخر والهجاء والتحريض على القتال والأخذ بالثأر ومن قصص تدور وقائعها على ما كان بين الفريقين ، فشعر عنتره العبسي يصف الأطوار الأخيرة لحرب داحس والغبراء الطاحنة ، في حين كان كثير من شعر زهير يدور حول السلم بين القبيلتين والدعوة إليه ، وإظهار نتائجه ، والإعجاب برجلين من رؤساء ذبيان هما : هرم بن سنان ، والحارث بن عوف ، سعيًا في الصلح بين عبس وذبيان واحتملا ديات القتلى ونشر السلام في غطفان ، فكان هذا داعياً لزهير ليرسم لوحة رائعة للسلام واستفطاعه للحرب وأهوالها .

ويمدح هذين العظيمين على ما قاما به من جهود لتوطيد دعائم السلم في هذه الجزيرة المتنافرة المتخاصمة^(٢) .

يقول زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان وأهل بيته :

من أهل بيت يرى ذو العرش فضلهم يبني لهم في جنان الخلد مرتفق
المطعمون إذا ما أزمة أزمّت والطيبون ثياباً كلما عرقوا

١ - كان عمر بن الخطاب شديد الإعجاب بزهير ، ويقول فيه : " لا يتبع حوشي الكلام ولا يعاقل في المنطق ، ولا يقول إلا ما يعرف ولا يمتدح أحداً إلا بما فيه " .

٢ - ينظر ، أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، يوسف بن سليمان بع عيسى الأعم الشنتمري الأندلسي المعروف بالأعلم (ت ٤٧٦ هـ) تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الآفاق الجديدة ١ / ٢٦٩ .

كَانَ آخِرُهُمْ فِي الْجَوْدِ أَوْلَهُمْ إِنَّ الشَّمَائِلَ وَالْأَخْلَاقَ تَتَفَقُّ (١)

قال الميداني في مجمع أمثاله عند قولهم " أجود من هرم " هو هرم بن سنان بن أبي حارثة المري وقد سار بذكر جوده المثل ، فقد قال زهير بن أبي سلمى فيه :

إِنَّ الْبَخِيلَ مَلُومٌ حَيْثُ كَانَ وَلَدٌ كِنَّ الْجَوَادَ عَلَى عِلَاتِهِ هَرَمٌ

هُوَ الْجَوَادُ الَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ عَفْوَاً وَيُظْلِمُ أَحْيَاناً فَيُظْلِمُ (٢)

ووفدت ابنة هرم على عمر رضي الله عنه ، فقال لها : ما كان الذي أعطى أبوك زهيراً حتى قابله من المديح بما قد سار فيه ، فقالت : أعطاه خيلاً تتضى ، وإبلاً تتوى وثياباً تبلى وما لا يفنى ، فقال عمر : لكن ما أعطاكم زهير لا يبليه الدهر ، ولا يفنيه العصر ، ثم قال : قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم (٣) .

١ - المصدر نفسه ٩٦ / ١ .

٢ - نفسه ٩٦ / ١ .

٣ - نفسه ٩٦ / ١ .

المبحث الثاني : الغاية من الكرم

يسعى العربي جاهداً لتقديم حق الضيافة لمضيفه ، حتى لا يكن لُعنة للضيوف ، ويخرج عن القانون الفطري الذي سنته الطبيعة الصحراوية ، فالطارق الغريب الذي نفذ زاده وشرابه وطوحت به متون الفيافي والقفار بحاجة إلى مبيت وطعام وشراب ، ومؤانسة بعد أن نهش الجوع أحشاءه وملأ الفزع والقلق قلبه وجوانحه ، فإذا ما نال الضيف حقه ، يكون المضيف قد أدى واجبه وحقق مراده ، معبراً عن أروع معاني الفضيلة وأسمى آيات الإنسانية .

فهذا عروة بن الورد يطبق قانوناً إنسانياً نابعاً من مروءته وشهامته ، إنه ليس غنياً كغيره من الكرماء الذين يطلقون أيديهم بالعطية دون أدنى جهد ، فهو يركب المخاطر والصعاب ، ويلقي بنفسه في أتون السيوف والرماح من أجل غرض نبيل يتمثل في الحصول على القوت لأقربائه الذين مستهم الفقر ، ونال منهم الجوع ، فيقول (١) :

أَبَى الْخَفْضَ مِنْ يَغْشَاكَ مِنْ ذِي قَرَابَةٍ وَمِنْ كُلِّ سُبُودَاءِ الْمَعَاصِمِ تَعْتَرِي (٢)

وَمُسْتَهْنَى زَيْدٍ أَبُوهُ فَلَا أَرَى لَهُ مَدْفَعاً فَاقْتَنِي حَيَاءَكَ وَاصْبِرِي (٣)

هذا الكريم المغامر لم يستجب لنداء زوجة التي تطالب بالعدول عن الإغارة والغزو خوفاً عليه لأنه آمن إيماناً راسخاً بعدالة قضيته وسمو مبدئه ، حتى لو كلفه ذلك حياته ، وكيف يتراجع وهو الذي يغيث الملهوفين والأرامل خاصة أقاربه .

١ - ديوان عروة بن الورد ، ص ٣٦ .

٢ - خفض : خفض العيش . من يغشاك : من يطرقك من ذي قرابة . سبوء المعاصم : أي من شدة الجوع والبرد والاصطلاء على النار .

٣ - المستهنى : المستعطي . زيد هو جد عروة .

وهذا حاتم الطائي يلتقي مع سابقه في صلة للرحم يخاطب زوجه (نوار) قائلاً :

يَرَى الْبَخِيلُ سَبِيلَ الْمَالِ وَاحِدَةً إِنَّ الْجَوَادَ يَرَى فِي مَالِهِ سُبُلًا
لَا تَعْدِلُنِي عَلَى مَالٍ وَصَلْتُ بِهِ رَحْمًا وَخَيْرُ سَبِيلِ الْمَالِ مَا وَصَلَا (١)

يبدو أنه لا يبذل جهداً كالذي يبذله سيد الصعاليك ، لذا قد يتفوق عليه في الكرم ووصلته للأرحام ، وخير المال ما يُبذل في هذا المجال ، وفي فك العاني ، وفي ذلك يقول :

يُفَكُّ بِهِ الْعَانِي وَيُوكَلُ طَيِّبًا وَيُعْطَى إِذَا مَنَّ الْبَخِيلُ الْمُطْرَدُ (٢)
ويقول أيضاً :

يُفَكُّ بِهِ الْعَانِي وَيُوكَلُ طَيِّبًا وَمَا إِنْ تُغْرِيهِ الْقِدَاحُ وَلَا الْخُمَرُ (٣)

وهذا يعني أن الطعام المقدم لهؤلاء طيب لذة للأكلين سالم من شوائب المن والأذى ، محقق الغاية المرجوة من تقديمه .

ويظهر أن الكريم يجود لغرض نبيل يتمثل في راحته النفسية وشعوره بالسعادة ، لأنه يُسَطِّرُ أروع معاني الإنسانية بحروف من نور ، ولكنه في الوقت نفسه يجود أداءً للواجب وخوفاً من الخروج عن القانون الفطري ، وخوفاً من الدَّم وصوناً للعرض ، وطمعاً في محمدة وسيادة ، أو على أقل تقدير التشبه بالسادة ، فقد أصبح حاتم الطائي سيداً ؛ لأنه كان جواداً ، ومعلوم أن الغزو والإغارة والسلب والنهب ليست عند الصعاليك وسيلة من وسائل الغنى ، وجمع المال ، ولكنها أيضاً من وسائل البذل والعطاء واكتساب المحامد والتشبه بالسادة الأغنياء في

١ - ديوان حاتم الطائي ، ص ١٠٦ - ١٠٧ . شعراء النصرانية قبل الإسلام : لويس شيخو / ١
١٢٧ - ١٢٨ .

٢ - ديوان حاتم الطائي ، ٦٦ . شعراء النصرانية قبل الإسلام : لويس شيخو / ١ / ٢٢ .

٣ - ديوانه ، ص ٧٣ .

الجود والعطاء ، عبّر عن ذلك تأبط شراً بلوحة جميلة ، حيث يقول :

سَدَّدَ خِلَالَكَ مِنْ مَالٍ تُجَمِّعُهُ حَتَّى تُلَاقِيَ مَا كُلُّ امْرِئٍ لَاقٍ
لَتَقْرَعَنَّ عَلَى السَّنِّ مِنْ نَدَمٍ إِذَا تَذَكَّرْتَ يَوْمًا بَعْضَ أَخْلَاقٍ (١)

وهذه هي الغاية الأساسية عند عروة بن الورد :

دَعَيْنِي أَطْوَفَ فِي الْبِلَادِ لَعَلَّنِي أَفِيدُ غِنَى فِيهِ لِذِي الْحَقِّ مُحْمِلُ
أَلَيْسَ عَظِيماً أَنْ تُلَمَّ مُلَمَّةٌ وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْحُقُوقِ مَعُولُ
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَمْلِكْ دِفَاعاً بِحَادِثٍ نَلْمُ بِهِ الْأَيَّامَ فَالْمَوْتُ أَجْمَلُ (٢)

طلب الغنى عنده ليس هدفاً في حد ذاته ، ولكنه وسيلة لغاية نبيلة ، ومهمة سامية تتمثل في الكرم ، لقضاء الحقوق ، وأداء الواجبات خاصة لذوي القربى المعوزين ، والتشبه بالسادة الكرام الذين يشاركون المحتاجين معاناتهم ، معبرين عن أعظم معاني الإنسانية في مجتمع يفتخر بالقيم و يُعلي من شأن المبادئ الإنسانية .

ولعل أسمى الغايات وأنبهها ابتغاء وجه الله ﷻ في مجتمع لم تشرق عليه بعد شمس الإسلام ليبدد نورها الرباني ظلمات الجهل والضلال ، فهي جامعة مانعة ، تشمل جميع الغايات ، وأي غاية أعظم من تلك الغاية .
قال حاتم الطائي (٣) :

فَلَوْ كَانَ مَا يُعْطَى رِيَاءً لَأَمْسَكَتَ بِهِ جَنَابَاتُ اللَّوْمِ يَجْذِبْنَهُ جَذْبَا
وَلَكِنَّمَا يَبْغِي بِهِ اللَّهُ وَحْدَهُ فَأَعْطِ فَقَدْ أَرِيحَتْ فِي الْبَيْعَةِ الْكَسْبَا
من يقرأ هذه الآيات يعتقد أنها قيلت بعد نزول الوحي ، لأنها نابعة من الدستور

١ - المفضليات ، المفضل الضبي ، ص ١٩ .

٢ - ديوان عروة بن الورد ، ص ٦٢ .

٣ - ديوان حاتم الطائي ، ص ٤١ . وشعراء النصرانية قبل الإسلام ، لويس شيخو ، ص ٩١٦ .

القرآني ، ففي سورة البقرة (١) ، آيات تدعو إلى الإنفاق في سبيل الله ، لأن الحسنة بعشر أمثالها ، وتحذر من المن والأذى لأنه يبطل الصدقات وكان الطائي قرأ تلك الآيات قبل نزولها ، وفهم معانيها وآمن بها ودعا إليها ، لأن الجود لا يُعطى رياءً ولا يتبع ما أنفق مناً ولا أذى ، لأنه لن يسلم من سهام العتاب وسيوف اللوم ، وإنما يُعطي ابتغاء مرضاة الله وحده ، لينال الربح الوفير والكسب العظيم ، وأي كسب أعظم من ابتغاء وجه الله ﷻ أولاً ، ثم السمعة الطيبة والذكر الحسن بين الناس والسيادة في القوم ، فضلاً عن إغاثة الملهوف وفك العاني ، ورسم البسمة على الوجه البائس ، وزال شبح الجوع الذي عض البطون وطواها ، وإدخال الأمن والمسرة في نفوس الغرياء الذين يجوبون الفياقي والقفار ، وهذه كلها معان سامية للفضيلة والمروءة .

مظاهر الكرم :

للكرم مظاهر كثيرة ومتعددة منها :

١ . بسط الوجه ، ومضاحكة الضيف ، وإطالة الحديث .

قيل : "من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة ، وإطالة الحديث عند المواكلة" (٢) ، ولما نتأمل الصور الصادقة التي رسمها الشعراء في بسط الوجه أول القرى نلمح قول عروة بن الورد الذي يؤكد ذلك في قوله :

سَلِي الطَّارِقَ الْمُعْتَرِّ يَا أَمَّ مَالِكٍ إِذَا مَا أَتَانِي بَيْنَ قَدْرِي وَمَجْرِي
أُسْنِفِرُ وَجْهِي إِنَّهُ أَوَّلُ الْقَرَى وَأَبْذُلُ مَعْرُوفِي لَهُ دُونَ مُنْكَرِي (٣)

١ - يُنْظَرُ ، سورة البقرة ، الآيات : ٢١٦ - ٢٦٤ .

٢ - البيان والتبيين ، الجاحظ ١ / ٢٦-٢٧ .

٣ - ديوان عروة بن الورد ، ص ٤٤ . البيان والتبيين ١ / ٢٧ . وديوان الحماسة ٢ / ٢٥٨ .

وقول الراجز :

أَبْسُطُ وَجْهِي لِلضَّيْفِ النَّزْلُ وَالْوَجْهُ عَنوانُ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ (١)
إِذَا الْبَادِرَةُ بِالْتَّرْحِيبِ بِالضَّيْفِ ، وَاسْتِقْبَالِهِ الْاسْتِقْبَالَ الْحَارَّ وَمُضَاحَكَتِهِ ، كَمَا
صَوَّرَهَا لَنَا عَمْرُو بْنُ الْأَهْتَمِ ، فَقَالَ :

فَقُلْتُ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا مَبِيتٌ صَالِحٌ وَصَدِيقُ
وَمُضَاحَكَتُهُ مِنْ قَبْلِ عِرْفَانِي اسْمُهُ لِيَأْنَسَ إِنِّي لِلْكَسِيرِ رَفِيقُ (٢)
وَأَحْسَنَ مَا قِيلَ فِي مُضَاحَكَةِ الضَّيْفِ :

أُضَاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ وَيُخْصِبُ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيدُ
وَمَا الْخِصْبُ لِلْأَضْيَافِ أَنْ يُكْثَرَ الْقَرْىَ وَلَكِنَّمَا وَجْهَ الْكَرِيمِ خَصِيبُ (٣)
العنوان الأول للمقابلة بسط الوجه ، ومضاحكة الطَّارِقِ ، عندها يشعر
بالأنس والاطمئنان ، ثم تأتي المرحلة الثانية التي تتمثل في إطالة الحديث عند
المؤاكلة ؛ لأنه ركن أساسي من واجبات الضيافة ، ومن ذلك قول عروة بن الورد :
فَرَاشِي فَرَّاشُ الضَّيْفِ وَالْبَيْتُ بَيْتُهُ وَلَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ غَزَالٌ مُقَنَّنُ
أَحَدْتُهُ إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقَرْىَ وَتَعَلَّمْتُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ (٤)
يدل ذلك على مدى الحفاوة بالضيف الغريب والاهتمام به ، وتقديم واجبات
الضيافة له .

١ - الأشباه والنظائر ، الخالديان أبو بكر محمد ، وأبو عثمان سعيد ، تحقيق السيد محمد يوسف / ٢ / ١٠٢ .

٢ - البيان والتبيين ، الجاحظ / ١ / ٢٨ . والأشباه والنظائر / ٢ / ١٠٠ .

٣ - البيان والتبيين / ١ / ٢٨ . والأشباه والنظائر / ٢ / ١٠٢ .

٤ - ديوان عروة بن الورد ، ص ٩٩ . والبيان والتبيين ، الجاحظ / ١ / ٢٨ . ٢٧ . وديوان الحماسة ٢ / ٣٣٥ .

٢ - أفضل ما يُقدّم للضيف :

اعتاد الكرماء الأغنياء ذبح جزور للضيف لأن ذلك من تمام القرى ، وكان أفضل ما يُقدّم له شحم السنام ، وفي ذلك صورة حية رسمها لنا ربعة بن مقروم * فيقول (١) :

وأضياف ليّل في شمالٍ عريّةٍ قرئت من الكوم السديف المرعباً (٢)
كما صور حاتم الطائي قائلاً (٣) :

ألم تعلمي أنّي، إذا الضيف نابني وعزّ القرى ، أقرى السديف المسرهدا (٤)
ولابدّ من تقديم اللبن يُحلب بمجرد وصول الضيف ، فهذا الحارث بن حلزة يحث على ذلك (٥) قائلاً :

لا تكسّع الشؤل بأغبارها إنك لا تدري من الناتج (٦)

واخلّب لأضيافك ألبانها فإن شَرَّ اللبن الوالج (٧)

وهذا يعني أن إكرام الضيف أهم من جمع المال ، فالمال إلى زوال ولا يبقى إلا الأحاديث والذكر .

* ربعة بن مقروم بن قيس الضبي : أحد شعراء الحماسة مخضرم شهد بعض الفتوح (ت ١٦ هـ) تقريباً . المفضليات ، ص ٧٣١ . الأعلام ، الزركلي ٣ / ١٦ - ١٧ .

١ - المفضليات ، المفضل الضبي ، ص ٧٣٣ .

٢ - السديف : شحم سنام البعير . الكرم : العظام . المرعب : المتقطع .

٣ - ديوانه ، ص ٥٧ . ديوان المروعة ، ص ٧٢ .

٤ - المسرهد : المقطع .

٥ - المفضليات ، المفضل الضبي ، ص ٨٨٥ .

٦ - الكسع : أن يضع على ضرعها الماء البارد ليرتفع اللبن لتسمين الإبل . الغير : بقية اللبن في الضرع .

٧ - الوالج : الذي يلج في ظهورها من اللبن المكسوع .

٣ - السخاء على الأرمال واليتامى والبائسين :

لعل أبرز الصور في السخاء على الأرمال واليتامى عبّر عنها أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كدة (١) :

أبا ذئبجة من يوصى بأرملة أم من لأشعث ذي طمرين طملاً (٢)

فالمروءة تتجلى في أسمى معانيها وأقدس مظاهرها في السخاء على الأرمال واليتامى والمعوزين لرفع معاناتهم وتقديم يد العون لهم ، ومن يفعل ذلك يحظ بالثناء ويحسب له في ميزان مناقبه إذا قضى .

وإذا كان إكرام الغريب الذي فقد زاده وشرابه وتقطعت به السبل حقاً وواجباً ، فإن إكرام الأرمال واليتامى أكثر أهمية ووجوباً ، لأن هذه المعاني السامية تتفق وروح الإسلام الحنيف الذي يدعو إلى مساندة الأيتام والأرمال والمحتاجين .

وفي معلقة لبديع بن ربيعة نجد هذه الأبيات تصور نحر النوق وتوزيع لحومها على المستحقين من الجائعين والأرمال ، يقول (٣) :

وَجَزُورِ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لَحْتَفِهَا بِمَغَالِقِ مُتَشَابِهٍ أَغْلَامُهَا

أَدْعُو بِهِنَّ لِعَاقِرٍ أَوْ مُطْفِلٍ بَذَلْتُ لِجِيرَانِ الْجَمِيعِ لِحَامُهَا

فَالضَيْفَ وَالْجَارَ الْغَرِيبَ ، كَأَنَّمَا هَبَطَا تَبَالَةً مُخَصَّباً أَهْضَامُهَا

تَأْوِي إِلَى الْأُطْنَابِ كُلِّ رَذِيَةٍ مِثْلَ الْبَلْيَةِ قَالِصٍ أَهْدَامُهَا

٤ - دعوة الأضياف بشتى الوسائل :

الوسائل التي استخدمت لإرشاد الغرياء :

الوسيلة الأولى : إيقاد النار على الرُّبَا والجبال ليلاً .

١ - ديوان أوس بن حجر ، ص ١٠٣ . والبيان والتبيين ، الجاحظ ١ / ٢٠٥ .

٢ - الطمر : الثوب العالي . طملاً : فقير .

٣ - ديوان لبديع ، تحقيق وتقديم إحسان عباس ، وزارة الإرشاد ، الكويت ، ١٩٦٢ ، ص ٣٢٠ .

قد يهتدي الغريب الذي طوّحت به متون الفياقي بالنّار مشتعلة على جبل أو ربوة ، ويحلّ ضيفاً كريماً تُقدّم له واجبات الضّيافة ، لذا حرص الأجواد على إيقاد النّار لهداية الضّيّان ، ولعلّ أكثرهم عملاً وقولاً المضروب به المثل في الجود ، حاتم الطائي إذ يقول :

وليس على ناري حجاب يُكنّها لمستويص ليلاً ولكن أنيرها (١)

لأنّه يختلف عن البخيل الذي يخمد ناره خوفاً من النّزلاء الغرباء :

إذا ما البخيلُ الخبّ أحمَدَ ناره أقولُ لمن يصلى بناري أوقدوا

توسّع قليلاً ، أو يكن ثمّ حسّناً وموقدها الباري أعفّ وأحمَدُ (٢)

وكان يأمر غلمانه بإيقاد النّار إذا ما أطفأ البخيل ناره لينظر إليها من أضله الطريق فيأوي إلى منزله قائلاً :

أوقد فإنّ الليلُ ليل قُرّ والريحُ يا موقدُ ريح صرّ

عسى يرى نارك من يمرّ إن جلبتُ ضيفاً فانت حرّ (٣)

يدلّ ذلك على مبالغة محمودة في إكرام الضيف ، والنّزلاء الغرباء خاصة أيام الجذب شتاءً ، فهم أحوج النّاس إلى هذا الكرم الذي يمثّل أسمى درجات المروءة والفضيلة ، خاصة أنّه يرسم جانباً من الصور الإعلامية للإنسانية التي تتمثّل في منح الحرية للعبيد كي يعيشوا حياة أفضل .

وهذا المثقب العبدى يفخر بكرمه متباهياً بما فعله لضيفه الذي يسير في الليل المظلم فأوقد له النار ليهتدي بها ، فيقول (٤) :

١ - ديوان حاتم الطائي ، ص ٦٤ . يكنّها : يسترها . المستويص : المستضيء بالنار ليلاً .

٢ - المصدر السابق ، ص ٤٨ - ٤٩ .

الخب : الخداع . يصلى بناري : يقاسي حرها .

٣ - ديوان حاتم الطائي ، ص ٨٦ .

٤ - ديوان المثقب العبدى ، جمع وتحقيق د. حسن حمد ، ص ٥١ - ٥٢ .

- وسارَ تَعْنَاهُ الْمَبِيتُ فَلَمْ يَدَعْ لَهُ حَابِسُ الظِّلْمَاءِ وَاللَّيْلِ مَذْهَبًا (١)
 رَأَى ضَوْءَ نَارٍ مِنْ بَعِيدٍ فَخَالَهَا لَقَدْ أَكْذَبْتُهُ النَّفْسُ بَلْ رَأَى كَوْكَبًا (٢)
 فَلَمَّا اسْتَبَانَ أَنَّهَا آسِيَّةٌ وَصَدَّقَ ظَنًّا بَعْدَ مَا كَانَ كَذِبًا (٣)
 رَفَعَتْ لَهُ بِالْكَفِّ نَارًا تَشْبُهَهَا شَامِيَّةٌ نِكَبَاءُ أَوْ عَاصِيفٌ صَبَا (٤)
 وَقُلْتُ إِرْفَاعَهَا بِالصَّعِيدِ كَفَى بِهَا مُنَادٍ لِسَارِ لَيْلَةٍ إِنْ تَأَوَّيَا (٥)
 فَلَمَّا أَتَانِي وَالسَّمَاءُ تَبَلَّلُهُ فَكَيْفَ أَتَانِي الْبَرَكُ الْهُوَاجِدُ فَاتَّقَتْ فَكَيْفَ أَتَانِي الْجَنِبُ مِنْهَا بِطُغْيَةٍ (٦)
 فَكَيْفَ أَتَانِي الْجَنِبُ مِنْهَا بِطُغْيَةٍ دَعَتْ مُسْتَكَنَّ الْجَوْفِ حَتَّى تَصْنِبِيَا (٧)

صورة حية غاية في الروعة توحي برضا النفس والطمأنينة والتهلل في استقبال الضيف وصدق العطاء والجود وإكرامه حتى يشعر بالراحة والاستبشار .

الوسيلة الثانية : تعويد الكلاب على الضيوف :

وربما يهتدي الطارق بصوت الكلاب التي عُوِّدَتْ على النباح للنَّزْلِ ليهتدوا بصوتها ، فإذا أقبلوا هَشَّ الكلب لهم ويش وفي ذلك يقول حاتم الطائي :

وإن كلابي قد أهرت وعُوِّدَتْ قليل على من يعتريني ، هريرها (٨)

والكلب بطبيعة الحال له قدرة على التَّعَرُّفِ على الغرباء تحت جناح الظلام

١ - تعناه ، أتعبه وأعياه . الطامس : البعيد .

٢ - خالها : ظنها . راء : لغة في رأي ، رأى رأياً رؤية وراءه .

٣ - استبان : تبين وتحقق .

٤ - تشبها : تزيّد في إضرامها . شامية ريح قادمة من الشام .

٥ - الصعيد : الطريق . تاوياً : آتاه ليلاً .

٦ - الكوماء : الناقة السمينة . النئي : الضحم .

٧ - مستكن الجوف : يريد النمل .

٨ - ديوان حاتم الطائي ، ص ٩١ . وديوان المروعة ، ص ٤٥ .

أكثر من غيره ، إذ إن مهمته تنبيه صاحبه بقومهم وتحذيره ، وقد يتفاعل مع الغريب بشراسة ويؤذيه ، ولكن كلاب الأجواد لا تفعل ذلك ، فقد عودت على حسن الاستقبال والحفاوة ، وهذا دليل على مدى الرغبة في جلب المزيد من النزلاء الغرباء .

لذا حرص الغرباء في ظلمة الليل البهيم على تقليد أصوات الكلاب لترد عليهم فيستهدوا إلى بيوت الحي .

قال المثلث ، وهو أحسن ما ورد في المستنبحات (١) :

وَمُسْتَنْبِحٌ تَسْتَكْشِطُ الرِّيحُ ثَوْبَهُ لَيْسَقُطُ عَنْهُ وَهُوَ بِالنُّوبِ مُعْصِمٌ (٢)
عَوَى فِي سَوَادِ اللَّيْلِ بَعْدَ اعْتِسَافِهِ لَيَنْبِحُ كَلْبٌ ، أَوْ لَيَفْزَعُ نَوْمٌ (٣)
فَجَاوِبُهُ مُسْتَسْمِعُ الصَّوْتِ لِلْقَرْيِ لَهُ عِنْدَ إِيَّانِ الْمُهْبِتِينَ مَطْعَمٌ
يَكَادِ إِذَا مَا أَبْصَرَ الضَّيْفَ مُقْبِلًا يَكْلُمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمُ
وفي ذلك يقول عوف بن الأحوص (٤) :

وَمُسْتَنْبِحٌ يَخْشَى الْقَوَاءَ وَدُونَهُ مِنَ اللَّيْلِ بَابَا ظُلْمَةٍ وَسُتُورِهَا (٥)
رَفَعَتْ لَهُ نَارِي فَلَمَّا اهْتَدَى بِهَا رَجَرْتُ كِلَابِي أَنْ يَهَرَّ عَقُورِهَا (٦)

الوسيلة الثالثة : إبراز القدور في الفضاء :

لعل هذه الوسيلة خاصة بالأرامل والأيتام والمعوزين ، الذين لا يملكون قوت يومهم خاصة أيام الجذب والقحط ، إذ ينصب الأجواد الجفان الواسعة في

١ - شعراء النصرانية قبل الإسلام ، لويس شيخو ٣ / ٣٤٨ .

٢ - مستنبح : يطلب نباح الكلاب بتقليد أصواتها . الكشط والقشط يتقاربان " تحاول نزع ثوبه لشتتها " .

٣ - الاعتساف : الأخذ في الطريق على غير هداية " ضل " .

٤ - المفضانيات ، المفضل الضبي ، المفضلية رقم ٣٦ .

٥ - القواء : الفلاة .

٦ - يهر ، ينبج نبجاً خفيفاً . العقور : العاض .

الفضاء ، فقد كان لعبد الله بن جدعان * جفنة يأكل منها القائم والراكب لعظمها ، بل كانت جفنة يأكل منها الراكب على البعير ، وسقط فيها يوماً صبي فغرق ومات (١) .

وكان ابن جدعان يملأ جفنته ، ويدعو إليها الناس ، ليطعموا منها ، وقد مدحه أمية بن أبي الصلت * :

لَهُ دَاعٍ بِمَكَّةَ مُشْتَمِعِلٌ وَأَخْرَفَ فَوْقَ دَارَتِهِ يَنَادِي (٢)

إِلَى رُذُحٍ مِّنَ الشَّيْزَى مِلَاءٍ لِّبَابِ الْبَرِّ يَلْبِكُ بِالشَّهَادِ (٣)

أغلب الظن أن الطائي أكثر ثراء من ابن جدعان الذي كان يملأ جفنته بالبر ، لأن جفانه كانت تملأ بلحم الإبل ، وفي ذلك يقول :

وَمَا تَشْتَكِي قَدْرِي إِذَا النَّاسُ أَمَحَلْتُ أَوْثَقَهَا طَوْرًا وَطَوْرًا أَمِيرُهَا (٤)

وَأَبْرَزُ قَدْرِي بِالْفَضَاءِ قَلِيلُهَا يُرَى غَيْرَ مَضْنُونٍ بِهِ وَكَثِيرُهَا

وإِبْلِي رَهْنٌ أَنْ يَكُونَ كَرِيمُهَا عَقِيرًا أَمَامَ الْبَيْتِ حِينَ أُثِيرُهَا (٥)

وكانوا لا ينتظرون من يأتي ملبياً دعوتهم ، لأن البعض تأبى عليه كرامته وعفته

* - عبد الله بن جدعان : هو أحد الأجراد المشهورين في الجاهلية ، أدرك النبي قبل وفاته . خزاعة الأنب ، البغدادي ٣ / ٥٣٧ . الأعلام ، الزركلي ٤ / ٧٦ .

١ - يُنْظَر ، بلوغ الأرب ، الألويسي ١ / ٨٩ .

* - أمية بن أبي الصلت : شاعر جاهلي حكيم من أهل الطائف ، وهو ممن حرّموا الخمر ، ونبذوا عبادة الأصنام وكان يُخبر أن نبياً يبعث ، فلما بعث الرسول كفر به حسداً ، توفي سنة (٥ هـ) . الأغاني ٣ / ١٨٩ . الموشح ، ص ١٠١ . الأعلام ٢ / ٢٣ .

٢ . المشتمل : التّشيط .

٣ - الرذح : الواسعة . الشيزى : خشب كانت تصنع منه الجفان . يلبك بالشهاد : يخط بالعسل

٤ - أوثقها : أى أجعلها على الأثافي وهي حجارة الموقد ، وأميرها : آتيها بالمونة .

٥ - ديوان حاتم الطائي ، ص ٩٢ . وديوان المروعة ، ص ٩٥ .

التلبية ، كان يطوي بطنه على الجوع طي الزداء ، ويعصب عليها حجراً ، ويقع في بيته لا يشارك المحتاجين ، فيذهب إليه أصحاب الجفان الكرماء ، ويجدونه مُزْمِلاً ، مُعْدِماً فيخففون بجودهم حزنه ويفرجون ضيقه ، معبرتين عن أعظم معاني الإنسانية وأقدسها .

ومن اللوحات المعبرة عن ذلك قول الأعشى (١) :

حَوْلِي ذَوَّ الْآكَالِ مِنْ وَائِلٍ كَاللَّيْلِ مِنْ بَادٍ وَمِنْ حَاضِرٍ
الْمُطْعَمُو اللَّحْمِ إِذَا مَا شَتَوْا وَالْجَاعِلُو الْقَوْتَ عَلَى الْيَاسِرِ
مِنْ كُلِّ كَوْمَاءَ سَحُوفٍ إِذَا جَفَّتْ مِنَ اللَّحْمِ مَدَى الْجَارِ (٢)
وَالشَّافِعُونَ الْجُوعَ عَنْ جَارِهِمْ حَتَّى يَرَى كَالْغُصْنِ النَّاصِرِ

وهذا مالك بن حريم الهمداني* يفخر بآبائه ومروءته ويأربع خصال ضمنها كرمه ، فساقها بلوحة جميلة سوقاً لطيفاً في حديثه فيقول (٣) :

فَإِنْ يَكُ شَابَ الرَّأْسُ مِنِّي فَإِنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفْسِي مَنَاقِبَ أَرْبَعَا
فَوَاحِدَةً أَلَّا أُبَيِّتَ بَغْرَةً إِذَا مَا سَوَّامُ الْحَيِّ حَوْلِي تَضَوَّعَا
وَتَانِيَةً أَلَّا أُصَمِّتَ كَلْبَنَا إِذَا نَزَلَ الْأَضْيَافُ حِرْصاً لِنُودَعَا
وَتَالِثَةً أَلَّا تُقَدِّعَ جَارَتِي إِذَا كَانَ جَارُ الْقَوْمِ فِيهِمْ مُقَدِّعَا
ورابعةً أَلَّا أَحْجَلَ قَدْرَنَا عَلَى لَحْمِهَا حِينَ الشَّتَاءِ لِنَشْبِعَا

ونلمح صورة أخرى يرسمها لنا طرفة بن العبد يفخر فيها بكرم قومه ، إنها لوحة تمثل الشتاء بسماته الكالحة ورياحه العاصفة المتربة ، ويرده القاسي وجليده

١ - ديوان الأعشى ، ص ٩٣ .

٢ - السحوف : الناقة السحوف ، السمينة كثيرة الشحم (اللسان مادة سحف) .

• - مالك بن حريم بن مالك الهمداني ، شاعر فحل جاهلي من لصوص همدان .

٣ - الأصمعيات ، الأصمعي ، ص ٥٨ . أصمعية رقم (١٥) .

المتساقط كأنه القطن وفي هذه الشدة تذبح كرام الإبل من العشار السمان لتقدم للجياح فيقول (١) :

وَأَنَا إِذَا مَا الْغَيْمُ أَمْسَى كَأَنَّهُ سَمَاحِقُ ثَرِبٍ وَهِيَ حَمْرَاءَ حَرْجَفٍ (٢)
وَجَاءَتْ بِصُرَادٍ كَأَنَّ صَقِيعَهُ خِلَالَ الْبُيُوتِ وَالْمَنْتَازِلِ كُرْسُفٍ (٣)
وَجَاءَ قَرِيعُ الشَّوْلِ يَرْفُصُ قَبْلَهَا إِلَى الدِّفَاءِ وَالرَّاعِي لَهَا مُتَحَرِّفُ (٤)
نَزْدُ الْعِشَارِ الْمُنْقِيَاتِ شَطِيطُهَا إِلَى الْحَيِّ حَتَّى يُمْرِعَ الْمُتَصَيِّفُ (٥)
تَبَيُّتُ إِمَاءَ الْحَيِّ تَطْهِي قُدُورَنَا وَيَأْوِي إِلَيْنَا الْأَشْعَثُ الْمُتَجَرِّفُ (٦)

ومن فخره الرائع ما ارتفع به صوته مجلجلاً مزهواً فخراً بكرمهم الواسع الشامل وقت الشدة يصوره في لوحة ذائعة مشهورة حيث يقول (٧) :

نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفْلَى لَا تَرَى الْآدِبَ فِينَا يَتَنَقَّرُ (٨)
حِينَ قَالَ النَّاسُ فِي مَجْلِسِهِمْ أَقْتَارَ ذَاكَ أَمْ رِيحُ قَطْرِ (٩)
بِجْفَانٍ تَعْتَرِي نَادِيَنَا مِنْ سَدِيفٍ حِينَ هَاجَ الصَّنِيرُ (١٠)

١ - ديوان طرفة بن العبد ، ص ٦٨ .

٢ - السميح : شحم دقيق . ثرب الشاة : شحمها . الحرجف : الشديدة الباردة .

٣ - الصرء : سحب لا ماء فيه . الكرشف : القطن .

٤ - القريع : الفحل . الشول : جمع شائلة وهي التي خفت بطنها وضرعها .

٥ - العشار : الحوامل من النوق . المنقيات : ذوات الشحم والمخ . الشطي : العظام .

٦ - الأشعث : المغبر الرأس ، الرزي الهياة . المتجرف : الذي خسر ماله .

٧ - ديوان طرفة بن العبد ، ص ٦٠ .

٨ - ندعو الجفلى : نعم بدعوتنا إلى الطعام ولا نخص أحداً ، الإلذب الداعي وضد الجفلى النفري ، وهي أن يخص بعض الناس بدعوته دون بعض .

٩ - أقتار : أي رائحة لحم يشوى . القطر : العود الذي يتبخر به .

١٠ - تعتري : تأتي . السديف : قطع السنام . الصنير : البرد الشديد .

كَالْجَوَابِي لَا تَنِي مُتْرَعَةً لِقَرَى الْأَضْيَافِ أَوْ لِلْمُحْتَضِرِ (١)

ثُمَّ لَا يَخْزُنُ فِينَا لَحْمَهَا إِنَّمَا يَخْزُنُ لَحْمُ الْمَذْخِرِ (٢)

إنها صورة رائعة ماثلة ناطقة بكرمهم الشامل الذي لم يخص الأغنياء ومن يرجون عندهم المنفعة وإنما هو كرم يعم الناس جميعاً طلباً للمجد واكتساب الحمد . وهو كرم مضاعف ، لأنه جار وقت الشدة وقرم الناس إلى اللحم ، حتى إن رائحة الشواء عند الجياح أضحت بمنزلة رائحة العود وهو كرم غزير (٣) لما هم فيه من الجهد والحاجة إلى الطعام.

الوسيلة الرابعة : عند شدة القحط والجذب ، وندرة اللبن واللحم يعمد الأغنياء إلى لعب الميسر بالقداح على جزور ، ومن يريح يجعل أجزاء الجزور طعاماً للمحتاجين وكان الذي لا يسهم في اللعب يسمونه " بَرَمًا " ، لذا افتخروا بالمشاركة في لعب الميسر ، وفي ذلك يقول النابغة مفتخراً (٤) :

هَلَا سَأَلْتُ بَنِي ذُبْيَانَ مَا حَسَبِي إِذَ الدُّحَانُ تَغَشَّى الْأَشْمَطَ الْبَرَمَا (٥)

وَهَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ ذِي أُرْلٍ تَرْجِي مَعَ اللَّيْلِ مِنْ صِرَادِهَا صِرَمَا (٦)

إِنِّي أَتَمُّ أَيْسَارِي وَأَمْنَحُهُمْ مَثْنَى الْأَيْدِي وَأَكْسُو الْجَفْنَةَ الْأُمَامَا (١)

١ - لَا تَنِي : لَا تَقْتَر . الْمُحْتَضِر : النَّازِلُ عَلَى الْمَاءِ .

٢ - يَخْزُنُ اللَّحْمُ : تَغَيَّرَتْ رَائِحَتُهُ وَفَسَدَ .

٣ - طَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ حَيَاتِهِ وَشَعْرَهُ ، د. مُحَمَّدُ عَلِيُّ الْهَاشِمِيُّ ، ص ١٣٤ .

٤ - دِيوَانُ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِي ، ص ١٥٣ . ١٥٤ . وَشُعْرَاءُ النَّصْرَانِيَّةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، لُؤَيْسُ شَيْخُو ٥ /

٧٠٥

٥ - الْأَشْمَطُ الْبَرَمُ : الشَّيْخُ الَّذِي لَا يَشَارِكُ الْقَوْمَ الْمَيْسِرَ .

٦ - الصِّرَادُ : شِدَّةُ الْبَرْدِ ، أَوْ السَّحَابُ لَا مَاءَ فِيهِ . أُرْلٌ : جَبَلٌ بِبِلَادِ غُطْفَانَ .

١ - الْأَيْسَارُ : جَمْعُ يَسَرَ وَهُمْ الْمُتَقَامِرُونَ ، وَالْيَاسِرُ الضَّارِبُ بِالْقَدَاحِ . مَثْنَى الْأَيْدِي : أَيَّ أُعْطِيهِمْ نَصِيئِهِ ، أَوْ الْمُبَرَّاتُ الْكَثِيرَةُ .

لعب الميسر عادة نميمة حرّمتها الشريعة ، ومجتها الأذواق السليمة ، ولكنها كانت وسيلة إلى غاية نبيلة ، وهدف إنساني يتمثل في إطعام الفقراء والمحتاجين . وهذا طرفه بن العبد يعرض ذلك في لوحته الفنية في إطار من الوصف التفصيلي ، وقد أبرز قومه في ذروة السخاء والجود إذ يلعبون الميسر ، ويضربون بقدرح المنيح بالذات وهو القدرح المشهور بالفوز ، وهذا دليل السيادة والغنى والشرف ، فيقول (١) :

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ إِذَا أَرِمَ الشِّتَاءُ وَدُوخِلَتْ حَجَرُهُ (٢)
يَوْمًا وَدُونِيَّتِ الْبُيُوتِ لَهُ فَتَنَى قَبِيلَ رَبِيعِهِمْ قِرْرَهُ (٣)
رَفَعُوا الْمَنِيحَ وَكَانَ رِزْقُهُمْ فِي الْمُنْقِيَاتِ يُقِيمُهُ يَسْرَهُ (٤)
شَرَطًا قَوْمًا لَيْسَ يَحْبِسُهُ لَمَّا تَتَابَعَ وَجْهَهُ عُسْرُهُ (٥)

كما وصف في لوحة أخرى قومه الكرماء بأنهم أيسار لقمان ، أي من أشرف من لعب الميسر حين تغلي الشتوة القاسية لحم الجزور ، وتجعله نادراً صعب المشتري ، وآية كرمهم أنهم يتقامرون على أعضاء الجزور ويوزعون ما يربحون منها على الفقراء والمحتاجين فيقول (٦) :

وهم أيسار لقمان إذا أغلّت الشتوة أبداء الجزر (١)

١ - ديوان طرفه بن العبد ، ص ١٢١ .

٢ - أزم الشتاء : اشتد برده .

٣ - دونيت البيوت : تدانت وقربت بعضها من بعض .

٤ - المنيح : قدرح يمتح ويستعار لاشتغاره بالفوز .

٥ - تتابع وجهه : أخذ طريقه ووجهه . العسر : العسر .

٦ - ديوان طرفه بن العبد ، ص ٦٧ .

١ - الأيسار : جمع يسر وهم المتقامرون ، والياسر الضارب بالقدرح ، وإذا شرف الضاربون قيل أيسار لقمان ، وهو لقمان بن عاد . إبداء الجزور : أشرف أعضائها .

ومن سجاياهم أنهم يزدادون كرمًا على ما ينوبهم من عسر ، كما تزداد الخيل جرياً على ما ينوبها من مشقة وتعب ، ولا يذرون المخدول إن غاب عنه أقرباؤه وأنصاره ، وفي ذلك يقول طرفة (١) :

نَعْفُو كَمَا تَعْفُو الْجِيَادُ عَلَى الْإِصْبَاحِ وَالْمَخْدُولُ لَا نَذَرُهُ (٢)

إِنْ غَابَ عَنْهُ الْأَقْرَبُونَ وَلَمْ يُصْبِحْ بِرَيْقٍ مَائِهِ شَجَرُهُ (٣)

ولا يقتصر كرمهم على إطعام الطعام ، بل تعداه إلى جبر المحروب السليب الذي فقد ماله ، يلجأ إليهم ، فيبنون له بيتاً ويعطونه سواماً وخدمًا ، حتى يغدو كأنه واحد منهم وفي هذا تصوير جميل من طرفة بن العبد حيث يقول (٤) :

خَيْرُ حَيٍّ مِنْ مَعْدٍ عُلِمُوا لِكَفْيٍ وَلِجَارٍ وَابْنِ عَمٍّ (٥)

يَجْبُرُ الْمَحْرُوبُ فِينَا مَالَهُ بِنَاءٍ وَسَوَامٍ وَخَدَمٍ (٦)

ولا يقتصر واجب المضيف على تقديم الطعام لضييفه والترحيب به " بل عليه حمايته والدفاع عنه مادام في بيته ، فإذا اعتدى عليه كان الاعتداء كأنه وقع على المضيف وخزي وكسف اسمه بين الناس ويلحق العار به وبأسرته ، فلا بد من حماية ضيفه والدفاع عنه مهما كان شأنه وحاله من ضعف وفقر ، فإن كان عاجزاً استدعى قومه للدفاع عن اسمه من المعتدين " (٧) .

١ - ديوان طرفة بن العبد ، ص ١٢٤ .

٢ - نَعْفُو : نَزِيد وَنَكْثَر . الْعِلَات : الْمَشَقَّةُ وَالتَّعَبُ .

٣ - يُصْبِحُ : مِنْ الصُّبْحِ . وَرَيْقٌ كُلُّ شَيْءٍ : أَوَّلُهُ وَهَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ .

٤ - ديوان طرفة ، ص ١٠٥ .

٥ - الْكَفْيُ : الْمَكَافَى فِي النِّسْبِ .

٦ - الْمَحْرُوبُ : مَنْ سَلَبَ مَالَهُ ، وَالسَّوَامُ : الْإِبْلُ السَّائِمَةُ فِي الْمَرْعَى .

٧ - الْمُفْصِلُ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، د. جواد علي ٥ / ٦٨ .

المبحث الثالث : حوافز الكرم

عاش العربي في كبد ، حيث الظروف الطبيعية القاسية ، لم يعرف معنى الراحة ، ولم يذوق طعم الاستقرار ، كان يجوب الفياقي والقفار ، ويقطع المهامة والمفاظات ؛ بحثاً عن الماء والكأ وإلا مات جوعاً وظمأ ، فهو إما أن يكون ضيفاً عزيزاً أو مضيفاً كريماً ، فكان لزاماً عليه أن يكون جواداً حتى لا يكون لعنة للنزل .

ومهما ترؤد في سفره ، فهو عرضة لأن ينفد ما يملك من طعام وشراب ، فإن لم يجد من يمد له يد العون هلك في أتون الصحراء .
وللجود حوافز كثيرة ومتعددة منها :

١ . تحقيق الثناء والحمد لصاحبه الذي أغاث المعوزين ذوي المتربة وأنقذ حياتهم ، وفي ذلك يقول رجل من آل حرب رداً على من لامته في مبالغته في الجود :
قالت أراك بما أنفقت ذا سرف فيما فعلت فهلأ فيك تصريد^(١)
قلت اتركيني أبغ مالي بمكرمة يبقى ثنائي بها ما أورك الغود^(٢)

المال مهما كان كثيراً مصيره الزوال ، والذي يبقى الذكر الحسن والسمعة الطيبة على مر الأيام والعصور ، فهذا عبد قيس بن خفاف يوصي ابنه قائلاً^(٣) :
والضيف أكرمه فإن مبيته حق ولا تك لعنة للنزل^(٤)
وأعلم بأن الضيف مخبر أهله بمبيت ليلته وإن لم يسأل

١ - التصريد : التقليل .

٢ - ديوان الحماسة ٢ / ٣٣٤ .

٣ - المفضليات ، المفضل الضبي مفضلية رقم ١١٦ . هو من بني عمرو بن حنظلة من البراجم ، قال الأتباري : ولم يرفع نسبه ولم نجد شيئاً من ترجمته .

٤ - لعنة النزل :- لا تك لعنة على أهل بيتك أي لا يسئ أهل بيتك بسبك . (اللسان ٣ / ٣٧٤) .

فالذي يجمع المال ويعدده يحسب أن ماله يخلده ، أنى له ذلك ، فالبخل لم ولن يخلد صاحبه ، قال سودة اليربوعي :

ألا بكرت مَيَّ عَلَيَّ تَلُومَنِي تقولُ ألا أَهْلَكْتَ من أنتِ عائِلَةٌ
ذريني فإنَّ البُخلَ لا يخلدُ الفتَى ولا يَهْلِكُ المعروفَ من هو فاعِلُهُ (١)

لذا كتب العربي على نفسه الجود لتتصوَّع سمعته مسكاً ، وتفوح رائحته عنبراً ، وينجو من برائن الدَّم وسهام النَّزْل .

وهذا شاعر آخر أراد أن يتطلع إلى أسباب المجد والسيادة فحاول أن يضع منهجاً واضحاً من خلال لوحة فنية يتغنى فيها بمكارم الأخلاق التي ورثها عن أبيه من كرم وجود وعفة يقول مالك بن حريم الهمداني :

أجودُ على العافي وأحذرُ ذمَّهُ إذا ضنَّ بالمعروفِ كُلُّ بَخِيلٍ (٢)

ونسمع في هذه اللوحة الجميلة الحوار الذي يدور بين حاتم الطائي وزوجه التي تلومه على إنفاقه المال ، وتبرز في هذه اللوحة الفنية الصادقة تجربة الشاعر من خلال واقع حياته ، فيقول (٣) :

١ - ديوان الحماسة ، المرزوقي ٢ / ٣٤٢ .

٢ - شعر همدان وأخبارها في الجاهلية والإسلام ، حسن عيسى أبو ياسين ، ص ٦٧ .

٣ - ديوان حاتم الطائي ، ص ٤٠ .

وعاذِلَةٌ هَبَّتْ بَلِيلٍ تَلُومُنِي تَلُومٌ عَلَى إِعْطَائِي الْمَالَ ضَلَّةً تَقُولُ أَلَا أُمْسِكُ عَلَيْكَ فَإِنَّنِي ذَرِنِي وَحَالِي إِنَّ مَالِكَ وَافِرٌ أَعَاذِلَ لَا آلُوكِ إِلَّا خَلِيقَتِي ذَرِنِي يَكُنْ مَالِي لِعِرْضِي جَنَّةً أَرِنِي جَوَاداً مَاتَ هُزْلاً لَعَلَّنِي	وَقَدْ غَابَ عَيُّوقُ الثَّرِيَا فَعَرَّدَا (١) إِذَا ضَنَّ بِالْمَالِ الْبَخِيلُ وَصَرَّدَا (٢) أَرَى الْمَالَ عِنْدَ الْمُتَمَسِّكِينَ مُعْبَدًا (٣) وَكُلُّ إِمْرٍ جَارٍ عَلَى مَا تَعَوَّدَا فَلَا تَجْعَلِي فَوْقِي لِسَانِكَ مِبْرَدًا (٤) يَقِي الْمَالُ عِرْضِي قَبْلَ أَنْ يَتَبَدَّدَا (٥) أَرَى مَا تَرَيْنَ أَوْ بَخِيلًا مُخْلَدًا
---	---

يبدو في هذه اللوحة أن حاتم الطائي يلجأ إلى الألفاظ المعبرة ، ويتخذ من الحوار مع زوجته وسيلة للتعبير عن معانيه وتصوير مشاعره ، وما تحمله من شحنات عاطفية قوية تعكس واقع الحياة " فالشاعر يصدق في التعبير عن نفسه في محيط الشعر بكل أبعاده " (٦) ، وقد استطاع في نهاية النص أن يقنع زوجته بالحكمة والحجة التي تحوي خلاصة تجربته في الحياة ، ويحاول أن يقرر مبدأه ويؤكد كرمه ويسألها أن تدله على جواد مات جوعاً أو بخيل خلد على الدهر .

ومن روائع شعر المدح في الكرم لوحة حية لطرفة بن العبد ، مدح قتادة بن سلمة الحنفي الذي أغاث قومه في سنة مجدبة أصابتهم ، فيقول (٧) :

١ - العيوق : اسم نجم يأتي مباشرة بعد الثريا . عرد : مال للغروب .

٢ - صردا : قليل العطاء .

٣ - المتمسكين : البخلاء . المعبد : المكرم

٤ - آلوك : أبطأ وأقصر .

٥ - ذريني : اتركيني . جنة : سترة (اللسان ١ / ٥١٦) .

٦ - القصيدة الجاهلية في المفضليات ، د. مي يوسف خليف ، ص ١٠٩ .

٧ - نيبان طرفة بن العبد ، ص ٩٢ .

- أَبْلَغَ قَتَادَةَ غَيْرِ سَائِلِهِ مِنْهُ الثَّوَابَ وَعَاجِلَ الشُّكْمِ (١)
 أَنِّي حَمَدْتُكَ لِلْعَشِيرَةِ إِذْ جَاءَتْ إِلَيْكَ مَرْقَةُ الْعِظَمِ (٢)
 أَلْقُوا إِلَيْكَ بِكُلِّ أَرْمَلَةٍ شَعْنَاءَ تَحْمِلُ مَنْقَعِ الْبُرْمِ (٣)
 فَفَتَحْتَ بَابَكَ لِلْمَكَارِمِ حَيْدٍ بِنِ تَوَاصَتِ الْأَبْوَابُ بِالْأَرْمِ (٤)
 فَسَقَى بِلَادَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوْبُ الْعِمَامِ وَدِيمَةُ تَهْمِي (٥)

تفجر هذه اللوحة كلمات صادقة ومديح نابع من القلب تشع فيه أنداء المودة ويفوح منه عبير الوفاء والعرفان لهذا الممدوح الذي بسط يده كريمة على عشيرته وغمرهم بالمكارم ، في حين تواصى الناس بإغلاق الأبواب في وجوه اليائسين والمحرومين ومن ثم استحق الثناء والمدح بحزارة وصدق وحسن تنويه .

إنه مديح نابع من القلب ، لم يبتغ قائلة من نتصيبه غنيمة مرجوة ، ولم يرم إلى كسب مأمول ، وإنما يوفي الممدوح حقه مما سبق له من بسط يده كريمة سخاء على عشيرته التي جاءت ذات يوم مجهدة رقيقة العظم ، فلاقت في رحابه الرفض والغوث والعون ، وقد جلى طرفه كرم قتادة وسمو خلقه وسعة فضله على الناس ، إذ شخّص بؤس عشيرته وفاقته المائل في هيئة الأرامل الشعث البائسات المهزولات اللواتي جئن في ركب العشيرة ، فإذا قتادة يفتح لهم بابه ، ويغمرهم بالمكارم في حين تواصى الناس بإغلاق الأبواب في وجوه العفاة والمحرومين ، إنها لمقارنة بارعة بين ما فعله هذا السيد الكريم الجواد ، وما فعله غيره في أيام

١ - الشكم : الجزاء على الشيء . .

٢ - مَرْقَةُ الْعِظَمِ : أي جاءت مجهودة رقيقة العظم .

٣ - الشَعْنَاءُ : المتغيرة بالهزال وسوء الحال . والبرم : جمع برمة وهي قدر من حجارة ، وآراء بها هنا برماً صغاراً .

٤ - الْأَرْمِ : الإطباق والإغلاق .

٥ - صَوْبُ الْمَطَرِ : وقعه . والدِيْمَةُ : المطر الدائم .

الشدة والكرب العظيم ، زاد في روعتها وجمالها هذا المجاز البديع إذ أسند فيه التواصل للأبواب ، وأراد أصحابها الأشقاء الممسكين .

ومن هنا ينطلق لسان طرفة بهذا الدعاء الحار اللهج بالصدق لقتادة بالسقياء ، وإنه لدعاء قرظه علماء البلاغة العربية ونقادها الذواقون جمالها ، وأثنوا عليه ، إذ رأوه من أحسن ما وصف به المطر الخير اللين النافع الذي لا يخرب البيوت ، ولا يفسد المزارع ، ولا يزيد على حاجتها وريّها ، ويبدو أن هذه الأبيات تمثل أسلوب طرفة في مديحه ؛ لأنها من شعره الصادق الصادر عن قلب ينبض بالحب والإعجاب والتقدير لرجل محسن كريم .

وهذه لوحة أخرى لشاعر يتمنى بعد موته أن تراثه ابنته بأحب صفة إليه وهي الكرم ، فيقول لها (١) :

بَنِيَّةُ إِنْ الْمَوْتَ لَا بَدَ لَاحِقٌ بِشَيْخِكَ مَاضِي الْأَنَامِ الْمَوَدَّعِ
فَإِنْ قَمْتُ تَبْكِينِي فَقُولِي أَبُو النَّدَى وَمَأْوَى رَجَالٍ بِائِسِينَ وَجُوعِ

إن الشاعر بدأ لوحته بأحب الأسماء (بنية) ثم يطلب منها أن تتدبه بأحب صفة إلى نفسه وهي الكرم ، وأن تقول (أبو الندى) لأنها صفة بارزة تعطي إحياء ودلالة أقوى من الكلمة المباشرة ، إن هذه اللوحة يلونها الوجدان ويطرزها الحب بين ابنة يتوقع الأب الشاعر منها الوفاء لذكراه ، وبين أب يأمل أن يذكر بكرمه وجوده وحبّه للبائسين والجائعين ، وعاطفة الأب هنا ترسم بالألوان أسمى مشاعر البنوة ، وهذه المعاني التي رسمتها العاطفة تجسد شكلاً إنسانياً راقياً عاشه المجتمع الجاهلي ولم يلتفت إليه النقاد فيما أعلم .

إن بذل الأموال لن يتلف الفتى بل مدعاة إلى الخلود مادام الجسد يبلى ولن يخلد

١ - المؤلف والمختلف : الأمدي ، ص ١٤٠ . قائل هذه الأبيات طرفة الحارث بن قيس بن يعمر

الشداخ الكنائي ، شاعر جاهلي .

، قال هشام بن حرملة بن صرمة :

دعيني فإنَّ الجودَ لن يتلفَ الفتى ولن يُخلدَ النفسَ اللئيمةَ لومُها
وتذكرُ أخلاقُ الفتى وعظامه مفرقةً في القبرِ بادٍ رميمُها (١)

ويصور لنا طرفة بن العبد أصالة الكرم في قومه بصورة رائعة حيث يقول (٢) :

تلقى الجفانَ بكلِّ صديقةٍ ثمتَ تردُّدُ بينهم حيرُهُ (٣)
وترى الجفانَ لدى مجالسنا متحيراتٍ بينهم سُؤره (٤)

إن فضيلة الكرم ميزة للعربي في باديته المجدية ، يتغنى بها في شعره ، وقد كثر ذكر الكرم في لوحات بارزة في الشعر الجاهلي ننقل هذه اللوحة للزريقان * حيث يقول (٥) :

ونحرق الكوم عبطاً في منازلنا للنازليين إذا ما استطعموا شبعوا (٦)
ونحن نطعم عند المحل ما أكلوا من العبيط إذا لم يظهر القزع (٧)

١ - الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني ١٥ / ١٠٣ .

٢ - ديوان طرفة بن العبد ، ص ١٢٢ .

٣ - بكل صادقة : أي بلحم كل ناقة صادقة السمن . الحير : الولك وهو دسم اللحم .

٤ - متحيرات بينهم سُوره : أي يتحير بين الأضياف بقايا الجفان .

• - الزريقان بن بدر التميمي السعدي صحابي من رؤساء قومه قيل اسمه الحصين ولقب بالزريقان (وهو من أسماء القمر) لحسن وجهه ولاء رسول الله ﷺ صدقات قومه ، فثبت إلى زمن عمر ، توفي في أيام معاوية .

(الأعلام ٣ / ٤١) .

٥ - الأغاني : الأصفهاني ٤ / ١٥٥ .

٦ - الكوم جمع أكرام وهو البعير الضخم السنام والأنتى كرماء . عبطاً : أي ننحرقها وهي سليمة لا تشكو مرضاً ، وهي فتية سميكة .

٧ - المحل : الشدة والجذب ، القزع : السحاب ويعدده المضر .

٢ . الخوف من الذم :

لا يقبل المضيف أن يكون لُغْنة للضيوف الكرام مهما كلفه ذلك ، فهو يبذل قصارى جهده لإكرام ضيفه .

قال عمرو بن الأهتم* في لوحة فنية تدل على ذلك :

وكلُّ كريمٍ يَنْقِي الذَّمَ بالقرى وللخير بين الصالحين طريقُ
لعمرك ما ضاقت بلادٌ بأهلها ولكنَّ أخلاقَ الرجال تضيقُ
مكارمُ يجعلن الفتى في أزومةٍ يَفَاعُ وبعضُ الوالدينَ دقيقُ (١)

لا مناص من تقديم الواجب ، والخروج عن القانون الفطري الذي فرضته الظروف الطبيعية على هؤلاء ، الذين كانوا يؤثرون المبيت على الطوى ، ويطوون بطونهم كطيَّ الزداء خوفاً من الذم ، وفي ذلك يقول حاتم الطائي يخاطب زوجه ماوية بنت عبد الله :

إذا ما صنعتِ الزَّادَ ، فالتمسي له أكيلاً ، فإنِّي لستُ آكله وحدي
أخاً طارقاً ، أو جار بيتٍ ، فإنني أخافُ مذماتِ الأحاديثِ من بعدي (٢)
كرم حاتم الطائي ميزة خاصة ينفرد بها دون غيره من الشعراء ، ولم يكن له سبب طرب ألد من إكرام الضيف والسخاء على الأرامل والمعوزين .
يقول في لوحة أخرى موضحاً أنه أثر الضيفان على نفسه وهو جائع إثناء الذم ، فهو يوقد النار ليهتدي بها الأضياف لأنه يستحي أن يأكل وحده .

* - عمرو بن الأهتم : هو عمرو بن سنان بن سَمَى بن سنان من بني تميم ، سَمَّى بالأهتم لأنه أصيب بسهم فهتم فاه ، وهو جاهلي إسلامي ، كان خطيباً شاعراً ، وكان يُسمى في الجاهلية " المكحل لجماله . الشعر والشعراء ٢ / ٥٢٨ . الموشح ص ٩٦ .

١ - المفضليات ، المفضل الضبي ، ص ٢٥٤ .

٢ - ديوان حاتم الطائي ، ص ٦٢ . وشعراء النصرانية قبل الإسلام ، لويس شيخو ١ / ١٢٦ .

أما والذي لا يعلم السر غيره ويحيي العظام البيض وهي رميم
 لقد كنت أختار القرى طاول الحشا محافظة من أن يقال لئيم
 وإنني لأستحيي يميني وبينها وبين فمي داجي الظلام يهيم^(١)
 وتبدو التجربة الشعرية في هذه النماذج التي يتجه ظاهرها إلى تقرير منطلق
 الكرم من خلال تأكيد هوان المال وانتقاء الذم كما في قول مزي بن ضمرة
 النهشلي :

أرأيت إن صرخت بليل هامتني وخرجت منها بالياً أنوابي

هل تخمشن إبلي علي وجوهها أم تعصبن رؤسها بسلا^(٢)

إنها صور إنسانية تؤكد قناعة الشعراء بموقف الكرم وبذل كل ما يملكون إكراماً
 للفقراء واليتامى ، والأرامل والبائسين والمزمّلين .

٣ . عادة حسنة :

الكرم صفة وعادة حسنة تعود عليها العربي ، وتعدّ عليه تركها ومن يتق الذم
 بالقرى يتعود على ذلك ولا سبيل من التخلّي عن هذه العادة الحسنة ، وفي ذلك
 يقول حاتم الطائي :

وقائلة أهلك بالجوّد مالنا ونفسك حتّى ضرّ نفسك جودها

فقلت دعيني ، إنّما تلك عادتي لكلّ كريم عادة يستعيدّها^(٣)

إنه شعور مفعم بالسعادة والرضا والراحة النفسية حين يجود بماله لإطعام

١ - ديوان حاتم الطائي ، ص ٣٤ .

٢ - الوحشيات : أبو تمام ، تحقيق عبد العزيز الميمني ، ص ٢٥٦ .

صرخت بليل هامتني : كناية عن الموت ، والهامة : طائر يمثل روح القتيل ويصبح اسقوني اسقوني
 حتّى يأخذ أهل القتيل بثأره ؟ .

٣ - ديوان حاتم الطائي ، ص ٦٣ . وشعراء النصرانية قبل الإسلام ، لويس شيخو ١/ ١٢٦ .

الجوعى ، ومساعدة الأيتام والأرامل ، وإكرام الطارق البائس يدلّ على المروءة والشّهامه ، فهي تأصّلت في نفسه ، وأصبحت طبيعة ، أنّى له أن يتخلّى عنها وهي عنوان للفضيلة .

فالكرم سجية وطبع فيه لا يغيره لوم اللائمين ، حتى وإن كان اللوم من زوجته أقرب الناس إليه .

وهذا أحد بني حرب وقد تعرض للوم على إنفاقه أمواله يرد قائلاً :

بِأَنْتَ تَلُومُ وَتُلْحَانِي عَلَى خُلُقِي عَوْدَتُهُ عَادَةٌ وَالْجُودُ تَعْوِيدُ

إِنَّا إِذَا مَا أَتَيْنَا أَمَرَ مَكْرُمَةٍ قَالَتْ لَنَا أَنْفُسُ حَرْبِيَّةٌ عَوْدُوا (١)

يبدو إن الشاعر متمسك بهذه الصفة النبيلة التي امتاز بها ، ويؤكد أنها عادة متأصلة فيه ، ويصعب عليه تركها ، وكأنه يقول - الطبع يغلب التطبع - لأن العادة الحسنة التي تعود عليها من إكرام وجود وإنفاق ماله من خلال عطاء المتواصل مبدأ استمر في نفسه ، ولا سبيل من التخلي عنه ، إنها صور إنسانية رائعة توحى بقناعة العطاء والبذل وإكرام الضيف .

٤ . عنوان للفضيلة :

يبدو أن صفة الكرم عند العربي تؤمن له الارتقاء إلى أعلى درجات المروءة ، فالجود من هذا المنطلق يعد في نظر البعض عنواناً للفضيلة لأنه يجلب السرور والراحة النفسية للنفس الكريمة وفي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان أبيات تعد لوحة فنية غاية في الجمال :

أَخِي ثَقَّةٌ لَا تُتْلَفُ الْخُمْرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهُلِكُ الْمَالُ نَائِلُهُ

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مَتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ (٢)

١ - ديوان الحماسة ، المرزوقي ٢ / ٣٣٤ .

٢ - ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص ٦٨ .

استحق الممدوح الثناء والمدح ، لأنه خالف الآخرين الذين قد يشعرون بالغضب والندم عند عطائهم ، أما هو فيشعر براحة نفسية تبدو ملامحها : ثغره باسم ، ووجهه وضاح تلاًلاً فرحاً كأنه هو الذي يعطي الإكرامية ، وأي إكرامية يحظى بها هذا الممدوح ، فعلاً يستحق الثناء والحمد ، ويحظى بالذكر الحسن والسمعة الطيبة ، والأهم من ذلك أنه يرسم البسمة على وجوه المعوزين ، وفي ذلك مشاركة وجدانية رفيعة المستوى عظيمة القدر .

يتضح لنا أن الشاعر كان صادقاً في مدحه ، بارعاً في رسم لوحة فنية رائعة ضرب فيها على وتر حساس ، عبّر من خلالها عن الحالة النفسية للجواد الذي يهش ويتهلّ وجهه عندما يعطي ، لأنه يدرك أنه يبعث الأمل والسعادة في النفوس المحتاجة لهذا العطاء ، وبذلك يرتقي بنفسه إلى أعلى درجات المجد والمروءة .

٥ . صون العرض :

إن الكرم هو الدرع الحصين لحماية العرض ، فالجود الذي يخيف المعاناة عن البائسين ، ويكرم الضيوف يستحق التقدير والاحترام ، ولا يسمح لأحد أن يمس عرضه ، وكأن بذل المال جنة للعرض ، فالمال إذا ذهب وضاع فثمّ مجال للحصول عليه ، أما العرض إذا ضاع فلا سبيل إلى رده ، فالتضحية بالمال أهون بكثير من التضحية بالعرض ، وخير من أتحننا بلوحات فنية تؤكد ذلك حاتم الطائي ، حيث يقول :

دُرِينِي يَكُنْ مَالِي لِعَرْضِي جُنَّةً يَفِي الْمَالُ عَرْضِي قَبْلَ أَنْ يَتَبَدَّدَا (١)

وقال في موضع آخر :

وأَجْعَلُ مَالِي دُونَ عَرْضِي إِنِّي كَذَلِكَ مِمَّا أَفِيدُ وَأُتْلَفُ (٢)

١ - ديوان حاتم الطائي ، ص ٦٧ . وشعراء النصرانية قبل الإسلام ، لويس شيخو ١ / ١٢٠ .

٢ - ديوانه ، ص ١٠٤ . ديوان المروءة ، ص ١٠٥ .

وقال أيضاً :

وأجعل مالي دون عرضي جنةً لنفسي فاستغني بما كان من فضلي^(١)
فحاتم الطائي عندما يقري ضيفه ويبدل ماله يدرك أن المال غاد ورائح ، وأن الثراء
لا يغني عن الفتى إذا دنا أجله لأنه يعلم أن للإنسان أجلاً ، وأن الخلود ليس من
نصيبه ، ويدرك أن الجود سيرفع منزلته يوم تحين الآجال فاتخذ الكرم شعاراً له ،
أنّ البذل والعطاء خير وسيلة لصونه ووقايته ، لذا لا يبالي البهلول أو الفياض إذا
أتلف ماله ، إذا سلّم عرضه ، وفي ذلك يقول المتقّب العبدى في خالد بن الحرث
، عندما كان أسيراً عند بعض الملوك ، فكلّمه فيه خالد فوهبه له :

يجعل المال عطياً جمّةً إن بذل المال في العرض أمّم
لا يبالي طيب النفس بما عطب المال إذا العرض سلّم^(٢)

وقال آخر :

أجود بمالي دون عرضي ومن يرد رزية عرضي يعترض دونه البخل
إذا المرء أثرى ثم ضن بماله أبى الناس يوماً أن يكون له الفضل^(٣)
يبدو أن الثناء والذكر الحسن ، والسّمة الطيبة ، ونقاء العرض مسببات كفيّة
بترشيحه إلى السّيادة في قومه .

٦ . وسيلة من وسائل السّيادة :

إن بذل المال في نظر الجاهليين وسيلة إلى الحياة الكريمة وكسب
المحامد ، والسيادة التي مطلبها صعب ، وسلمها طويل لن يناله لئيم أو بخيل ،
وهذه السيادة التي يسعى إليها الأجواد ليست مبنية على الغلبة والقهر والاستبداد

١ - ديوانه ، ص ١٠٤ . وديوان المروعة ، ص ١٠٩ .

٢ - شعراء النصرانية قبل الإسلام ، لويس شيخو ١١٣ / ٣ .

٣ - الحماسة البصرية ، البصري ٧٩ / ٢ .

، وإنما مصدرها الحب والاحترام والتقدير في مجتمع المبادئ والأخلاق النبيلة ، ولم لا ، فقد شاع عند العرب مبدأ سيد القوم خادهم ، ولا مرأى في هذا ، فهو الذي يمد يد العون للبائسين الذين يتضورون جوعاً ، ويد الواجب والحق للنزل وأمسى عبداً لهم وخادماً (١) .

وقد يكون الجود وسيلة من وسائل السيادة ، ولا عجب في ذلك ، لأنَّ صاحبه يتلف أمواله من أجل أغراض إنسانية وقيم نبيلة تحقّق الحياة الكريمة للمعوزين والملهوفين ، وتدخل الأمن في نفوس الغرباء ، وخير مثال على ذلك حاتم الطائي الذي أصبح سيداً في قومه لأنّه جواد ، حيث يقول :

يقولون لي أهلك مالك فاقتصد وما كنت ، لولا ما تقولون سيداً (٢)

ولعلّ " البيئة الصحراوية المجربة هي التي رشّحت الكرماء للسيادة والرئاسة " ، ومن الطّبيعي أن يكون الجواد الغيداق أهلاً للقيادة في قومه ، لأنّه يتحلّى بأخلاق نبيلة وقيم عظيمة ترشّحه ليكون رئيساً (٣) .

تتّضح لنا من خلال استعراضنا للشعر الجاهلي ، ومن خلال كرم الأجواد أن حوافز الكرم تصبّ في معين القيم والمبادئ والمعاني الإنسانية ، فالكرم الذي يسعى لتحقيق الثناء والحمد في حياته وبعد مماته ، ويخاف من الدّم يمدّ يد العون ؛ لرفع المعاناة عن المحرومين والبائسين ، يرقى بنفسه إلى أعلى درجات المروءة والشّهامة ، ولن يتخلّى عن هذه العادة الحسنة ، فمن خلالها تتجلّى معاني الإنسانية في نفسه ، فهو بذلك يصون عرضه ، وبذلك يستحق الكرم أن يكون سيداً في قومه .

١ - يُنظر ، القيم الأخلاقية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام ، د. يونس إبراهيم ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

٢ - ديوان حاتم الطائي ، ص ٥٨ . وديوان المروءة ، ص ٧٢ .

٣ - عمر المسوقي : الفتوة عند العرب ، ص ٦٠ .

كما يبدو أن مفهوم الكرم أصيل عند العربي ، قديم قدم المواقف الاجتماعية التي تنزع إلى تشريف العنصر الإنساني حتى عرف بكثرة سخائه ووفرة عطائه وقراه لضيفه كدليل على حسن علاقاته الاجتماعية والقبلية وسعيًا إلى ربط-أواصر المحبة والألفة ونشرها بين القبائل العربية .

وهكذا تحتم عليه أن يقدم يد العون لكل طارق أو عابر سبيل يقصده ليلاً أو نهاراً ، شتاءً أو صيفاً ، أو ربيعاً أو خريفاً .

الخاتمة

لكل مجتمع إطار من القيم والاتجاهات التي تحكمه وتوجه ثقافته ، وتعد القيم إحدى مكونات الثقافة بمعناها الواسع الذي يمكن أن تعبر عنه بأنه البناء العلوي للمجتمع ، والذي يشمل العقائد والقيم والعادات ، وتؤدي القيم دوراً مهماً في تحديد سلوك الأفراد وتوجهاتهم في المجتمع الذي نعيش فيه ، وتعد القيم الإنسانية مرجعاً وموجهاً لسلوك الإنسان ، حيث تتجدد اتجاهاته وميوله ، وأنشطته المختلفة داخل مجتمعه من خلال قيم ذلك المجتمع ، فالكرم من القيم الأخلاقية التي مرّ بها العرب في شبه الجزيرة العربية لارتباطه بالمعاني السامية التي استحوذت على قلوب الشعراء فملكت عليهم المشاعر ومن هنا كانت كثير من أشعارهم في مدح الكرماء تمثل الرد الحقيقي للأعمال الخيرة من بذل وعطاء وضعت في لوحة من ألواح الشرف لهؤلاء الكرماء الذين استحقوا المكانة الرفيعة والمنزلة المرموقة اعترافاً بفضلهم . إنها صورة مثلى يطمح إليها المجتمع ويرتضيها الناس لأنهم اتفقوا عليها ، وآمنوا بها ، ودافعوا عن الحفاظ عليها ، لأنها ترسم قيماً خالدة انبثقت من مجتمعهم وتأكدت من خلال تجاربهم الإنسانية .

فإكرام الضيف حق ، لا يجوز التفريط فيه ولا التهاون لأنه من القيم الأخلاقية التي لها وقعها الكبير في النفوس وهو من الأخلاق العريقة التي عرفها العرب ، ومن أبرز صفات المجتمع العربي الجاهلي .

فالكرم من الفضائل التي يحب العربي أن يتحلى بها لأنه خلق نبيل ومظهر من مظاهر التعاون على ظروف الحياة القاسية في تلك الفياقي الواسعة .

فالبذل والجود والعطاء من أعظم معاني الإنسانية إذا وجدت في المجتمع وتفتت رفرفت عليه رايات الرحمة والمودة ، لأنها تبعث الأمل في نفوس المحتاجين وترسم البسمة على وجوههم ، وتدخل الأمن والمسرة على قلوبهم .

ومن هذا المنطلق فإن البحث تناول القيم والمعاني الإنسانية للكرم في

الشعر العربي قبل الإسلام ، فكشف عن أهمية تلك القيم ومدى انعكاس ذلك في أشعارهم ، واقتضت طبيعة البحث أن يكون في ثلاثة مباحث سُبقت بمقدمة وتمهيد ودُيِّلت بخاتمة ومسرد بالمصادر والمراجع .

تناولت في التمهيد توضيحاً لماهية القيم والمآثر الاجتماعية التي صورها الشعر الجاهلي ، كما تناولت في المبحث الأول مفهوم القيمة لغة واصطلاحاً ، تعريف الأخلاق لغة واصطلاحاً ، القيم الأخلاقية في القرآن والسنة النبوية الشريفة ، مفهوم الكرم لغة واصطلاحاً ، دوافع الكرم ، طبيعة الحياة الاجتماعية ، وتوصلت إلى أن الكرم من السجايا التي تنبت في الصحراء وتَأصلت هذه الفضيلة في نفوس العرب على الرغم من ظروفهم القاسية ، كما مجد الشاعر الجاهلي قيمة الكرم الأخلاقية ومدح الكرماء .

أما المبحث الثاني فقد تمثل في دراسة الغاية من الكرم واتضح لي أن الكريم يوجد لغرض نبيل يتمثل في راحته النفسية ، وشعوره بالسعادة لأنه يسطر أروع معاني الإنسانية بحروف من نور ، وفي الوقت نفسه أداءً للواجب ، وخوفاً من الخروج عن القانون الفطري ، وخوفاً من الذم وصوناً للعرض .

كما تناول مظاهر الكرم منها : بسط الوجه ومضاحكة الضيف وإطالة الحديث معه ، وأفضل ما يقدم للضيف ، وأبرزت من خلال الشعر أن المروءة تتجلى في أسمى معانيها في السخاء على الأرامل واليتامى والبالسين .

ودعوة الأضياف بشتى الوسائل التي استخدمت لإرشاد الغرباء مثل إيقاد النار على الربا والجبال ليلاً ، وتعويد كلابهم على الضيوف ، وإبراز القدر في الفضاء في حين توجه المبحث الثالث إلى حوافز الكرم المتعددة منها : تحقيق الثناء والحمد للكرماء ، فكانت أشعارهم نابعة من القلب يشع فيها الودّ والحبّ ويفوح منها عبير الوفاء والعرفان لهؤلاء الكرماء .

والخوف من الذم لأن العربي لا يقبل أن يكون لعنة للضيوف ويبدل قصارى جهده لإكرام ضيفه ، كما تبين لي أن الكرم صفة وعادة حسنة تعود

عليها العربي ، وتأصلت في نفسه ، فهي عنوان للفضيلة ، والدرع الحصين لحماية العرض .

واتضح لي أن الثناء والذكر الحسن والسمعة الطيبة ونقاء العرض مسببات كفيلة بترشيح الكريم إلى السيادة في قومه ، وأنه بكثرة سخائه ووفرة عطائه وقراه لضيغه يدل على حسن علاقاته الاجتماعية والقبلية .

ختاماً أسأل الله ﷻ التوفيق لخدمة تراثنا الخالد ، فإن وفقت فيه فقد بلغت المرام والغاية وإلا فهو جهد حرصت أن يكون نصيبي فيه من ثواب الاجتهاد ، وحسبي أن يكون صوتاً داعياً للبحث في هذا المجال وإغنائه ، وما الكمال إلا لله وحده ، وبه نستعين وله الحمد أولاً وآخراً .

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم .

- 1- الأنشباہ والنظائر ، الخالديان أبو بكر محمد ، وأبو عثمان سعيد ، تحقيق السيد محمد يوسف ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1965م .
- 2- أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري الأندلسي المعروف بالأعلم (ت 476 هـ) ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الآفاق الجديدة ط 1 ، 1979م .
- 3- الأصمعيات ، الأصمعي ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك (122-216 هـ) شرح وتحقيق أحمد محمد شاکر ، عبد السلام هارون ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر (د . ت) .
- 4- الأعلام ، خير الدين الزركلي ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء عن العرب والمستعربين والمستشرقين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، يوليو 1989م .
- 5- الأغاني ، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي (ت 356 هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط 2 ، 1412 هـ - 1992م .
- 6- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، محمود شكري الألوسي عني بشرحه وتصحيحه وضبطه ، محمد بهجه الأثري ، مطابع دار الكتاب العربي ، مصر ، الطبعة 3 ، 1342 هـ .
- 7- البيان والتبيين ، الجاحظ أبو عثمان بن عمر بن بحر بن محبوب (ت 255 هـ) ، حققه وشرحه حسن السندوبي ، المكتبة التجارية الكبرى ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان (د . ت) .
- 8- تهذيب الألفاظ ، ابن السكيت ، هذبه الشيخ أبو زكريا الثبريزي ، نقلاً عن نسختي ليدن وباريس ، وقف على طبعه وضبطه وجمع رواياته الأب لويس شيخو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت ، 1990م .

- 9- جدلية القيم في الشعر الجاهلي رؤية نقدية معاصرة ، د. جمعة بوعيو ، دمشق ، اتحاد الكتاب العرب ، ٢٠٠١م ، مكتبة الأسد .
- 10- الحماسة البصرية ، صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسين البصري ، معهد الدراسات الإسلامية ، الهند ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، 1963م .
- 11- ديوان الأسود بن يعفر ، صنعه نوري حمودي القيسي ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، ١٩٧٠م .
- 12- ديوان الأعشى ، ميمون بن قيس (ت ٦٢٩ هـ) ، دار صادر بيروت ، لبنان ١٣٨٠هـ ، ١٩٦٠ .
- 13- ديوان أوس بن حجر ، تحقيق د. محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠م .
- 14- ديوان حاتم الطائي (ت ٥٧٨ هـ) ، تحقيق وشرح كرم البستاني ، مكتبة دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٣م .
- 15- ديوان الحماسة ، أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي ، شرح التبريزي ، مكتبة النوري ، دمشق (دت) .
- 16- ديوان زهير بن أبي سلمى (ت ٦٠٩ هـ) تحقيق كرم البستاني ، دار صادر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م .
- 17- ديوان طرفة بن العبد ، (ت ٥٦٤ هـ) ، دار صادر ، دار بيروت 1380هـ ، 1961م .
- 18- ديوان عروة بن الورد (٥٩٤ هـ) شرح ابن السكيت ، حققه وأشرف على طبعه ووضع فهرسه عبد المعين الملوح ، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي (دت) .
- 19- ديوان لبيد بن ربيعة ، د. إحسان عباس ، مطبعة حكومة الكويت ، 1962م .
- 20- ديوان المنقب العبدى ، تحقيق د. حسن حمد ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٦ .
- 21- ديوان المروءة ، د. يوسف شكري ، دار الجبل ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى 1413هـ ، 1992م .

- 22- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة الإمام أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ثعلب ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٦٣ هـ ، ١٩٤٤ م .
- 23- شعراء النصرانية ، لويس شيخو اليسوعي ، ط 2 ، دار المشرف ، بيروت ، (د. ت)
- 24- صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق مصطفى الديب ، ط ٣ ، دار إحياء التراث ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٧ هـ .
- 25- طرفة بن العبد حياته وشعره ، د. محمد علي الهاشمي ، توزيع عالم الكتب ، ط 1 سنة 1400 هـ 1980 م طبع في بيروت مطابع ايبا لبنان .
- 26- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، أبو علي الحسن القيرواني الأزدي (ت ٤٥٦ هـ) حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجبل ، بيروت ط ٤ ، ١٩٧٢ م .
- 27- الفتوة عند العرب ، عمر الدسوقي ، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة (د. ت) .
- 28- القيم الخلقية في الخطابة العربية ، د. سعيد حسين منصور ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٩ م .
- 29- كتاب الوحشيات (الحماسة الصغرى) ، أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ، تحقيق عبد العزيز الميمي الراجكوتي ، زاد في حواشيه محمود محمد شاكر ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر ١٣٨٨ هـ ، ١٩٦٨ م .
- 30- لسان العرب ، ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711 هـ) ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأبحاث والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة (د. ت) .
- 31- مجمع الأمثال ، الميداني ، أبو الفضل أحمد بن إبراهيم النيسابوري (ت ٥١٨ هـ) حققه وفصله وضبط غرائبه وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٢ م .
- 32- مختار الصحاح ، محمد بن بكر الرازي ، تحقيق د. عبد الفتاح البركاوي ، طبعة جديدة ، دار المنار .

- 33- المعجم الوسيط ، د. أنيس إبراهيم ، ود. عبد الحليم منتصر ، وعطية الصوالحي ،
ومحمد خلف الله أحمد ، أشرف على الطبع حسن علي عطية ، محمد شرف أمين ،
مطبعة دار الأمواج ، بيروت ، لبنان ، 1407هـ ، 1987م .
- 34- مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، الأصفهاني ، الحسين بن محمد ، تحقيق : صفوان عدنان
داودي ، دار القلم ، دمشق ، ط1 ، 4121 هـ .
- 35- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د. جواد علي ، دار الملايين ، بيروت ، مكتبة
النهضة ، بغداد ، الطبعة الأولى ، 1970 .
- 36- المفضليات ، المفضل بن محمد الضبي أبو العباس (ت ١٧٨هـ) شرح أبو محمد
القاسم بن محمد بن بشار الأتباري ، عني بطبعه ومقابلة نسخه وتذييله بحواشي لعدة
لغويين وعلماء كارنوس يعقوب لایل ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٢٠م .
- 37- المؤلف والمختلف من أسماء الشعراء وألقابهم ، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى (ت ٣٧٠هـ)
تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى الحلبي
وشركاؤه ، القاهرة ١٩٦١م .
- 38- الموشح ، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني ، تحقيق علي محمد
البجاوي ، دار النهضة ، مصر ١٩٦٥م .